

تأليف
الشيخ أحمد القطان
محمد طاهر الزين

راجعه وعلق عليه فضيلة الشيخ
عبد الرحمن حسن حبنكه

مكتبة السندس
- ١٠ -

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

الطبعة الثالثة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

مكتبة السندس
الكويت ص.ب ٥٩٢٨٩ ر.ب 93153 ت ٤٨٧٣٢٦٠

الإهداء

إلى جنود الدعوة الميمونة في غياهب سجون الطاغوت .
إلى الأمهات المؤمنات الصابرات على محنة أولادهن الدعاة .
إلى الزوجات الشريفات العفيفات المطيعات لله ولرسوله .
إلى كل فلذات الأكباد من أبناء الدعوة الذين ينتظرون رجوع آبائهم وإخوانهم من وراء القضبان .
إلى كل هؤلاء نقدم هذا الكتاب

المؤلفان

لن نستكين

وأكاد أسمع صوت إخواني الدعاة المسلمين
تحت السياط يئن من جور الطغاة الظالمين
في قلب هاتيك الزنازن بين أعماق السجون
أبداً يدوي هادراً بالحق : **لا لن نستكين**
والعزة الشماء لله العزيز وللدعاة المؤمنين
والنصر والفوز المبين لهم .. لقوم موقنين
وعلى الزنازن والسجون تدب أنفاس السكون
إلا من التكبير يزأر بين آهات الأنين
وأكاد أسمع صوت آساد العقيدة والعرين
أبداً يدوي هادراً بالحق : **لا لن نستكين**

شاعر مسلم

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله، نحمده حمداً طيباً مباركاً فيه، ونصلي ونسلم على الهادي البشير، معلم الإنسانية وهاديها إلى طريق الرشاد والهدى المبين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ورضي الله عن العلماء المخلصين، مشاعل النور وحماة الشرع، المنافحين عن الدين، والمجاهدين في سبيل الله وبعد:

قدّر الله بيني وبين الشيخ الفاضل الأستاذ عبدالرحمن حسن حبنكة لقاء في إحدى قرى تركيا بقصد الراحة والاستجمام خلال صيف ١٩٨٧، فعرضت عليه كتبنا، فانشرح لها صدره وأثنى عليها خيراً، ثم طلب مني كتاب الطاغوت ليطلع عليه، فأهديته له، شاكراً له حسن الاهتمام.

وبعد فترة وجيزة أعاد فضيلته الكتاب وقد جمّلهُ بتعليقات لطيفة، وتصحيحات هامة، استفدنا منها وجعلناه في كتابنا، رغبة منا في إيثار الحق، والاستفادة من أهل العلم والفضل، وقد أثبتنا هذه التعليقات في الهامش ووضعنا أمامها نجمة تمييزاً لها عن هوامش الكتاب، كما أننا قمنا بتصحيح ما أمكن مما أرشد إليه الشيخ حفظه الله.

وإني لأحمد للشيخ صنيعه بكل حب وتقدير ووفاء، وأضع هذه التعليقات كالعقد الثمين في جيد كتابنا، والله أسأل حسن الهداية وتمام التوفيق. به أستعين، وعليه أتوكل وإليه أنيب. والحمد لله رب العالمين.

الكويت: غرة ربيع الأول سنة ١٤٠٩ الموافق ١٢/١٠/١٩٨٨.

محمد الزين



الفصل الأول



الطاغوت في القرآن الكريم

جاءت كلمة الطاغوت في القرآن الكريم في مواضع متعددة :

قال الله تعالى في سورة البقرة :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٦ .

ويقول سبحانه :

﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة آية ٢٥٧ .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ سورة النساء آية ٥١ .

ويقول جل جلاله :

﴿ ألم تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمروا أن يكفروا به ويريدُ الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ سورة النساء آية ٦٠ .

ويقول عز من قائل :

﴿ الـذين آمنـوا يقـاتلون في سبيـل الله والـذين كفـروا يقـاتلون في سبيـل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ سورة النسـاء آية ٧٦ .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة المائدة :

﴿ قـل هل أنبئكم بشرٍ من ذلـك مثوبـةً عند الله من لعنـة الله وغضب عليه وجعل منهم القِردة والخنازيرَ وعبدَ الطاغـوت أولئك شرٌ مكـاناً وأضـلُّ عن سواء السبيل ﴾ سورة المائدة آية ٦٠ .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة النحل :

﴿ ولقد بعثنا في كل أُمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ فمنهم من هـدى الله ومنهم من حقت عليه الضـلالة فسـيروا في الأرض فانـظروا كيف كـان عاقبة المكذبين ﴾ سورة النحل آية ٣٦ .

ويقول سبحانه في آية أخرى من سورة الزمر :

﴿ والذين اجتنبوا الـطاغوت أن يعبـدوها وأنـابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادِ * الذين يستمعون القول فيتبعـون أحسنه أولئك الذين هـداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ سورة الزمر آية ١٦ ـ ١٧ .

الطاغوت في السنَّة النبويةِ

جـاءت كلمة الـطاغوت في الحـديث النبوي الشريف في أحـاديث متفـرقـة منها :

عن عـروة رضي الله عنه قـال : سألت عـائشة رضي الله عنهـا فقلتُ لهـا : أرأيتِ قـول الله تعالى : **﴿إنَّ الصَّفـا والمروةَ من شَعـائـرِالله، فمَنْ حـجَّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جُناحَ عليهِ أنْ يَطَّوفَ بهما﴾** فوالله ما على أحدٍ جناحٌ أن لا يطوفَ بالصفا والمروة. قالت : بئس ما قلت يابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانـوا قبل أن يسلمـوا يهلون **لمنـاة الطاغيـة التي كانـوا يعبدونها عنـد المشلل**، فكان من أهـلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا : يارسـول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى : **﴿ إن الصفـاة والمـروة من شعائـر الله﴾** قالت عـائشة رضي الله عنهـا : وقد سن رسـول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما»[١].

فقـد بيَّن الحـديث أن الأنصار كـانوا قبـل أن يسلمـوا يهلون للصنم الـذي يعرف «بمناة» وقد وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها : «مناة الطاغية» .

كذلك نهى النبي ﷺ عن الحلف بـالطواغيت، فعن عبـدالرحمن بن سمـرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله : «لا تحلفوا بالطواغي[٢] ولا بآبائكم»[٣].

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري رقم ١٦٤٣ .

(٢) الطواغي : مفردها طاغية ، وهي الأصنام .

(٣) حديث صحيح ، رواه مسلم برقم ١٦٤٨ .

وقد بوب البخاري على هذا فقال : باب لا يُحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت[1] .

وفي حديث آخر جاء ذكر أحد أصنام العرب الذي ستعود العرب إلى عبادته آخر الزمان فوصفه الحديث بأنه طاغية كذلك .

قال سعيد بن المسيب : أخبرني أبو هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات[2] نساء دوس على ذي الخلصة» وذو الخلصة : طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[3] .

ووقع في رواية معمر : وكان صنماً تعبدها دوس » .

وقد قررت السنة النبوية أن مصير الطواغيت إلى النار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : يارسول الله! هل نرى ربَّنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : «هل تُضارون[4] في رؤية القمر ليلة البدر ؟» قالوا : لا يارسول الله! قال : «فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبعُ من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبعُ من كان يعبد القمر القمر، ويتبعُ من كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ. الخ»[5].

فنهاية كل طاغوت ومن كان يعبده أن يحشروا إلى النار جميعا .

هذا بعض ما جاء في السنة المطهرة عن الطاغوت .

---

(١) صحيح البخاري جـ ١١ ص ٥٣٦ من طبعة السلفية .

(٢) أليات : جمع ألية، وهي العجيزة من المرأة .

(٣) حديث صحيح ، رواه البخاري رقم ٧١١٦ .

(٤) هل تضارون : هل ترتابون أو تشكون .

(٥) حديث صحيح ، رواه مسلم برقم ٢٩٩ .

مفهوم الطاغوت عند أهل اللغة

مذهب سيبويه أن الطاغوت إسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير .

وذهب بعضهم إلى أن الطاغوت مؤنثة من طغى ويطغي ـ وحكى الطبري يطغو ـ إذا جاوز الحد ووزنه فعلوت .

ومذهب أبي علي أنه مصدر كرَهَبُوت وجَبُروت، يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين، وعينه موضع اللام كجبذ وجَذَب، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وتحرك ما قبلها فقيل طاغوت.

وقيل أن طاغوت في اللغة مأخوذة من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق كما قيل : لآلٍ من اللؤلؤ وبه قال ابن بحر .

وقال المبرد : هو جمع ، وقد رده ابن عطية .[1]

وقد قيل إنه اسم أعجمي مثل هاروت وماروت ، وأنه معرّب يقع على الواحد والجماعة .

قال أبو إسحق : كل معبودٍ من دون الله عز وجل ، جبت وطاغوت .[2]

يكون الطاغوت واحداً، كقوله تعالى : ﴿يُريدُونَ أنْ يتحاكمُوا إلى الطَّاغوت وقد أُمِرُوا أنْ يكفروا به﴾[3] .

ويكون جمعاً ، كقوله تعالى : ﴿ أولِياؤُهُم الطاغوتُ﴾[4] ويكون مؤنثاً، كقوله تعالى : ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾[5].

---

(١) تفسير القرطبي جـ : ٣ ص : ٢٨١ .
(٢) لسان العرب جـ : ١٥ ص : ٩.
(٣) سورةالنساء من آية ٦٠ .
(٤) سورة البقرة من آية ٢٥٧ .
(٥) سورة الزمر من آية ١٦ .

مفهوم الطاغوت عند العلماء

تعـددت آراء العلماء حول شخصيـة الطاغـوت ، والمراد بـه في الآيات التي جاءت في القرآن الكريم .

فذهب الجوهري إلى أن الطاغـوت هو الكـاهن والشيطان ، **وكـل رأس في الضلال** .

وقال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان ، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان .

وقال القرطبي : اجتناب الطاغوت يعني ترك كل معبود دون الله كـالشيطان والكاهن والصنم ، **وكل من دعا إلى الضلال** .

وقال أبو العالية : أنه الساحر .

وذهب سعيد بن جبير : إلى أنه الكاهن .

واختـار أبو جعفـر الطبري بـأنه : **كـل ذي طغيان طغى عـلى الله فيُعبـد من دونه** ، إما بقهر منه لمن عَبَدَه أو بطاعة له ، سواء كان المعبود إنساناً أو صنماً ، .

وقال الضحاك : بأن الجبت حُيي بن أخطب ، والطاغوت كعب بن الأشرف .

وقال جابر رضي الله عنه : « الطواغيت : كهان كـان ينزل عليهم الشيـطان في كل حي واحد » .

ويقول إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

« والطاغوت عـام ، فكل مـا عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو

متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت . والطواغيت كثيرة ورءوسهم خمسة :

(الأول) الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ .

(الثاني) الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى ، والدليل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً** ﴾ .

(الثالث) الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .

(الرابع) الذي يدعي علم الغيب من دون الله ، والدليل قوله تعالى : (**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ .

(الخامس) الذي يُعبد من دون الله وهو راض بالعبادة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ **ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين** ﴾ .

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً[1] بالله إلا بالكفر بالطاغوت[2] ، والدليل قوله

(*١) أي لا يصير مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

(*٢) لا يتم إيمانه بالله ولا يكون صحيحاً إلا بالكفر بالطاغوت .

تعالى : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ . الرشد دين محمد صلى الله عليه وسلم ، والغي دين أبي جهل ، والعروة الوثقى شهادة أن لا إله إلا الله وهي متضمنة للنفي والإثبات تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له(١) .

ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله :

« الذي يستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم : أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله ، سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس ، والأشجار والأحجار وغيرها . ويدخل في ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها . والقوانين نفسها طواغيت ، وواضعوها ومروجوها طواغيت . وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه . فهو طاغوت »(٢) .

ويقول المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله :

« والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل كا يطغى على الوعي ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد ، ولا يكون له ضابط من

---

(١) الجامع الفريد ص : ٢٦٥ - ٢٦٦ .
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص : ٢٨٧ .

العقيـدة في الله ، ومن الشريعة التي يسنهـا الله ، ومنه كـل منهج غـير مستمـد من الله ، وكل تصور أو وضـع أو أدب أو تقليد لا يُستمـد من الله[1]، إن الطاغـوت هو كل سلطان لا يُستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكـل عـدوان يتجاوز الحق ، **والعـدوان على سلطان**[2] **الله وألـوهيته وحـاكميته هـو أشنع العدوان وأشده طغياناً ، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى** »[3]

---

*(1) إن كان المراد الاستمداد من كتاب الله وشريعته لعباده فكثير ممّا هو حقّ من تصوّر أو وضع أو أدب أو تقليد غير مستمد من كتاب الله وشريعته لأن كتاب الله لم يتعرض لذلـك وقد يكـون الاستمداد من الكون، أو من الفكر وهي من خلق الله جميعا فالتعبير موهـم أو قاصر، وقولكم في التلخيص: لا يتفق وشريعة الإسلام كلام سليم .

*(2) سلطان الله لا يمكن العدوان عليه، إنما العدوان يكون على حـدود الله التي حدّهـا لعباده، وجعـل الله لهم بتمكينه القدرة على تجاوزها أو تعدّيها.
ومن حدوده أن لا يدّعي الربوبية أحد، ولا يدعي الألوهية أحد، ولا يتدخل في الشرائع التي هي من خصائص الألوهية أحد .

(3) في ظلال القرآن جزء ١ ـ ص ٢٩٢ .



الفصل الثاني

وبتدقيق النظر في هذه الأقوال يتضح لنا أن معنى الطاغوت في الشريعة الإسلامية يدور حول المعاني التالية :

١ ـ الشيطان : ذلك أن الشيطان كفر بربه وتوعد الإنسان بالغواية والضلال .
٢ ـ الكهان والعرافون والسحرة ومن يدور في فلكهم ممن يدّعون علم الغيب .
٣ ـ كل ما يُعبد من دون الله من صنم أو شجر أو بشر أو حيوان .
٤ ـ الحاكم الجائر المتعدي على دين الله في شرعه ، والذي يحكم بغير ما أنزل الله .
٥ ـ كل منهج أو تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يتفق وشريعة الإسلام .
٦ ـ من رضي بالطاغوت وركن إليه ، ودعا إلى عبادته ، أو التزم ما دعا إليه الطاغوت من ضلالاته

الطاغية والطاغوت

عرفنا مما سبق أن الطاغوت هو الذي تجاوز الحد في الطغيان فتعدى على شرع الله في الأرض ، فجعل نفسه نداً لله ، أو اتخذه الناس رباً من دون الله على غير فقه منه أو علم إذا كان مما لا يعقل ،أو بعلم منه وكيد من نفسه إذا كان ممن يعقل ، فكل من يتجاوز الحق أو يجور عليه ويتجاوز الحد ، فهو طاغوت .

أما الطاغية فهو الجبار العنيد ، والأحمق المستكبر الظالم ، الذي لا يبالي ما أتى ، يأكل أموال الناس ويقهرهم ، لا يثنيه تحرج ولا فَرَقَ .

فالطاغية ظالم غشوم قد يأخذ على الشبهة ، ويغمط حق الناس ، ويقهرهم بالتسلط والتجبر ، ويتكبر عليهم ، ولا يهتم بما آل إليه أمرهم .

والطاغية الغشوم لا يحزن لآلام الناس ، ولا يرق لحالهم ، ولا يرفق بهم ، ولا يشفق عليهم ، يشهر سيفه في وجوههم ويسلطه على رقابهم .

والفرق بين الطاغية والطاغوت واضح بيّن .

فالطاغية لا يأمر الناس بعبادته ، ولا يدعوهم إليها ، ولا يتخذ نفسه نداً لله ، ولكنه يظلم الرعية ، ويقسو على الأمة ، ومع ذلك لا يغير منهج الله ولا يبدله بغيره .

نعم ، قد يحكم بالهوى ، وقد يقضي بالباطل ، ولكنه يقر إما في نفسه ، أو أمام خاصته ، بأنه خالف حكم الله فيما به حكم ، وإنه مذنب مقصر ، وما دفعه إلى ذلك إلا سطوة الحكم ، وتحكم الهوى في نفسه .

وقد عرفت الأمة الإسلامية كثيراً من الطغاة ، أذاقوا الأمة الويل والثبور ،

وحصدوا الرؤوس ، وألجموا الأفواه ، وأقاموا قصورهم على جماجم العباد ، وجمعوا ثرواتهم من عرق الناس وكدحهم.

وكان هؤلاء الطغاة يصلون خمسهم ويصومون شهرهم ، ويظنون أن ذلك مانعهم من عذاب الله ، يوم يأخذهم بما أضاعوا من حقوق الرعية ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » وكان الخلفاء رضي الله عنهم ، ينتحبون فَرَقاً أن يكونوا قد ضيعوا شيئاً من حقوق رعيتهم .

ولقد ابتليت الأمة في العصر الحديث بطغاة لا تعريف لهم في قواميس اللغة عند القدماء ، فقد تلبسوا المكر والدهاء ، وتزينوا بالكذب والخداع ، ونمقوا كلامهم بالألفاظ ذات المفاهيم الجوفاء ، فقتلوا الحرية في روح الأمة باسم الحرية ، ورفعوا راية الجاهلية خفاقة باسم الحضارة والعلم والعصرية ، ونكسوا أعلام الهداية والدين تحت شعار الرجعية والتأخر ، حتى نطق إعلامهم ـ وأخرسه الله من إعلام جاهلي ـ فقال: بأن الله والرسل والأديان دُمى في متاحف التاريخ.[1]

هؤلاء الطغاة الذين جبنوا أمام عدوهم ، واستأسدوا على شعوبهم ، هؤلاء الذين أذاقوا الأمة الذلة والمهانة فراحوا يمرغون جباههم في أوحال اليهودية والصهيونية بكل الذلة والانكسار ، بدعاوى باطلة قالوا عنها : السلام .

هؤلاء هم الطغاة فإن جمعوا إلى ما ذكرناه الكفر والفسوق والعصيان كانوا طواغيتاً يجب قتالهم ، واجتثاث شرورهم من الأرض ، فإن أقاموا الصلاة وتمسكوا بظاهر الشرع ، فلا قتال علينا ضدهم .

والحاكم إذا كان مسلماً ملتزماً بالإسلام في نفسه ومنهاجه وحكمه ودواوينه وإدارته ، وخضع لشريعة الله خضوعاً مطلقاً ، وعمل على إعلاء شأنها ، ورفع

---

(١) مجلة جيش الشعب ١٩٦٤ .

رايتها ، وكان ممن قال الله فيه : ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ .[١]

إذا كان الحاكم على هذه الصفة ، وتلك السيرة له علينا حق السمع والطاعة والنصرة والتأييد في المنشط والمكره ، وفي اليسر والعسر ، ندافع عنه ونحميه ، ونقاتل دونه ، ونؤثره على النفس والمال والولد لقوله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »[٢] .

وقد يكون الحاكم من المسلمين ولكنه تظاهر بالفسق ، وعُرف بالظلم ، واشتهر باضطهاد الناس وقهرهم ، واستخدم غير المؤهلين للعمل ، أو غير المسلمين ، ولكنه ملتزم بإقامة الصلاة ، متظاهر بها ، لا ينهى عنها ولا عن شيء من شريعة الإسلام ، ويعترف لله بحق التشريع والحاكمية ، فهذا لا نحاربه مادام يلتزم بالصلاة ويؤديها ، وذلك للحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم ، قلنا يا رسول الله ! أفلاننا بذهم ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، إلا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يده من طاعة »[٣] .

فمثل هذا الحاكم لا نشهر السيف في وجهه قتالاً ، ولا نطيعه في معصية الله ، ولكننا نجاهده بألسنتنا بالاحتجاج على أعماله ، والنصيحة له في ذاته ، حتى

---

(١) سورة الحج آية ٤١ .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) حديث رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري .

يرجع إلى ربه ، ويثوب إلى رشده ، ويعدل عن غيه وظلمه « فإن من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ولا نأتي أبواب مثل هذا الحاكم إلا لأداء النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلينا أن نشعرهم بعزلتهم وهوانهم ، وأنهم لا يستحقون تقديراً ولا إكراماً بسبب ماهم فيه من ظلم وفسوق ، وعلينا أن نلهب الرأي العام ضد تصرفاتهم ، حتى يكثر في الأمة من يسمعهم كلمة الحق ، ويصدهم عن الظلم فيرتدعوا وينتهوا عن ظلمهم وفسقهم .

أما إذا كان الحاكم من الكافرين ، أو ممن يتسمون بأسماء المسلمين وقد ارتد عن دينه ، ورفض شريعة ربه ، وأعلن الحكم بما يمليه عليه عدوه ، أو بما يهديه إليه هواه ونفسه ، فإنه عند ذلك يكون كافراً طاغوتاً لا يسكت له على أمر ، ويجب على المسلمين أن يعملوا جماعات وأفرادا على قتاله والتخلص منه .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2] .

فالحاكم الجائر المغير لشريعة الله ، الذي استبدلها بغيرها ، أو استهان بها واستهجنها يُقاتل حتى يقضى عليه ، ويُتخلص منه ، ويعود للإسلام وشريعته حقه في الحكم والتشريع .

---

(١) حديث رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري .

(٢) حديث صحيح ، رواه مسلم برقم ٨٠.

يقول الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب :

« من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة كالصلوات والصيام والزكاة أو الحج ، أو ترك المحرمات كالزنا أو تحريم الدماء والأموال أو شرب الخمر أو المسكرات أو غير ذلك ، أنه يجب قتال الطائفة الممتنعة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله ويلتزموا جميع شرائع الإسلام ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ، وملتزمين بعض شرائع الإسلام ، وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف ، الصحابة فمن بعدهم ، وأن ذلك عمل بالكتاب والسنة » .(١)

(١) الجامع الفريد ص ٢٩٩ من رسالة الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة .

الطاغوت بين الكفر والإيمان

أُثير جدل في العصر الحديث حول الطاغوت ، وهل هو كافر أم مؤمن ؟ وهل ينحصر الكفر فيما يدعو إليه فقط ، أم يتعداه إلى نفسه ، فيوصف بالكفر هو وما يدعو إليه .

وكان سبب هذا الجدل ظهور بعض الجماعات التي عاشت محنة السجن ، وذاقت ألواناً من التعذيب لم تعرفها معاقل بيزنطة القديمة ، فخرجوا بقناعة خاصة تقول : **إن هؤلاء** الذين يعذبونهم لا يمكن أن يكونوا مسلمين ، وأن من يقف وراءهم ، **إنما** هو الطاغوت ، **وقالوا : إن الطاغوت** كافر ، وبالتالي فإن جنده كفار ، وانتشرت هذه الفكرة وسرت في عقول الشباب الذين يرون ضياع الدين في أمتهم ، ويلمسون انتشار الفساد والفاحشة في المجتمع ، ويجدون الانحراف عن شريعة الله سبحانه وتعالى في التصور والشعور والعمل والسلوك .

وانبرى لهذه الفكرة علماء أفاضل أخذوا في الرد على هؤلاء لتصحيح الفهم ، ورد هؤلاء الشباب إلى الحق وهجر التطرف .

ونحن في بحثنا عن الطاغوت نجد أن له ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة ، فكان لابد من الوقوف على حقيقة كفره أو إيمانه ، يقول الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله : « وفرق كبير بين أن نكفر بالطاغوت فننكره ونجحده ونكذب بدعواه ولا نتبعه ولا نطيعه ، وبين أن نصدر عليه حكماً بأنه كافر ، فهذه قضية ، وتلك قضية أخرى متمايزة عنها ومختلفة ، والواجب عدم الخلط بين القضيتين » . ثم يقول : « أما

القول : أن من اتبع الطاغوت فهو كافر ، فتلك جملة تحتاج إلى تفسير وإيضاح » ، ويقول كذلك : « ونحن لا نعلم نصوصاً تؤيد ذلك وتحدد أن الطاغوت لا يسمى به إلا الإنسان المشرك الداعي إلى الضلال » .

فالأستاذ الهضيبي رحمه الله وقاف مع النصوص الشرعية ولذلك قال : « ونحن لا نعلم نصوصاً تؤيد ذلك » أي كون الطاغوت أو أتباعه تنطبق عليهم صفة الكفر ، فللشيخ عذره بأنه لم يجد النصوص التي تعارض وجهته .

ولكننا وجدنا أن الهضيبي لم يوفق في هذا الأمر من وجوه :

١ ــ عرّف الشيخ الهضيبي الطاغوت : « بأنه من الطغيان ، وهو كل ما زاد عن الحد المقرر له » . وهذا حق لا شيء فيه .
ثم قال :

« فإذا كان الطاغوت وثنا أو صنما فإننا ننكر أن يكون ذلك الوثن أو الصنم حقيقا بالتعظيم أو الإجلال . ويتعين أن نكون على يقين من أنه لا يضر ولا ينفع ، ويتعين علينا اجتنابه أي اجتناب تعظيمه وإجلاله وإقامة الشعائر له أو طلب البركة منه ، فمن وفقه الله لذلك فقد استوفى الأمر الوارد بالنصوص ، أما الحكم والاعتقاد بأن الصنم أو الوثن كافر . فهذا ما لا ذكر له من تلك النصوص بل إن الله عز وجل أعلمنا أن ذلك الصنم أو الوثن جماد وغير عاقل ولا مميز ولا مكلف ولا يُحكم عليه بكفر أو إسلام » .

وما ذهب إليه هنا لا نخالفه فيه ، لأن الطاغوت ، إذا كان صنماً أو شجراً أو مغارة أو سوى ذلك ، مما لا يعقل ، ولا يؤمر بفعل معروف أو ترك منكر ، لأنه مما لا يُكلف شرعاً كونه جماداً أو بدون عقل فإنا لا نتعب أنفسنا بالحكم عليه بكفر أو إيمان ، لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب ، ولذلك لم يكلف المجنون

ومن في حكمه ، فالأمر واضح ولا يحتاج إلى مزيد دليل ، فالصنم وما في حكمه لا يوصف بالكفر أو الإيمان ، وما نظن أن أحداً من المسلمين يصفه بذلك .

٢ ــ ثم ذهب رحمه الله ، يذكر أمثلة للطاغوت فقال :

« وقد يكون الطاغوت شريعة من قال بها ليس بكافر ، ولا بعاص ، بل محسن مأجور عند الله تعالى ، فلو أن عالماً مجتهداً ، ورعاً لم يصب وجه الحق في إحدى فتاويه وظهر لنا خطؤه واضحاً لائحاً لا لبس فيه ، فإن فتواه تكون شريعة طاغية من تبعها بمعنى الاتباع في الشرع الذي سبق أن أوضحناه . فهذا قد اتبعَ الطاغوت مادام قد ظهر له بطلانها . وذلك لا يغير شيئاً من أن الذي أفتى بتلك الفتوى مجتهد محسن مأجور عند الله تعالى على اجتهاده ما قصد وجه الحق وإن أخطأه »(١) .

ولعمر الحق كيف عقد الأستاذ الهضيبي هذه المقارنة الغريبة العجيبة ، فجعل الفقيه المجتهد في علم أو دين إذا أخطأ في اجتهاده كان ذلك الاجتهاد طاغوتاً .

ومَنْ من المسلمين يقول بذلك ؟

وهو إنما ساق هذا المثال ليدلل على أن من معاني الطاغوتية المتجاوزة للحق هو هذا الضرب من الاجتهاد ، وبنى على ذلك بأنه لا يجوز أن نحكم بكفر الطاغوت .

نعم لا نحكم بكفر من كان طاغوتاً ، بهذا المعنى ، بل **إنَّنا لا** نقر أصلاً أن هذا يندرج تحت مظلة الطاغوتية ، لأن الاجتهاد منصوص عليه بالشريعة ، وما قال بكفر المجتهد أو بكفر اجتهاده إذا أخطأ أحد من المسلمين ، وما أورده الأستاذ

***(١) يريد الهضيبي التعصب لرأي الإمام المجتهد المخطىء في اجتهاده، فهذا التعصب التقليدي فكرة قد تدخل في مفهوم الطاغوت بوجه ما . فالتعصب برأيه فكرة طاغوتية لكن اجتهاد المجتهد فيها ليس من الطغيان في شيء .**

الهضيبي لا يرقى إلى مرتبة الدليل على أن الطاغوت ليس بكافر .

يقول إبن تيمية رحمه الله :

« ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتّباع الرسول ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه »[1].

ونكتفي بهذا لأن المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد من الأدلة .

أما الآن ، فنسوق الأدلة على كفر الطاغوت :

سبق أن أوضحنا معنى الطاغوت ، ثم أوردنا أقوال العلماء في مفهوم الطاغوت وأدلتهم في ذلك .

وذكرنا أن الطاغوت هو الشيطان أو الأصنام ، وقد يكون الكاهن أو الساحر ، وقد أطلقه بعض العلماء على حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ، وذهب الكثيرون إلى أنه الحاكم بغير ما أنزل الله لعموم قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ومن حكم بغير ما أنزل الله فقد تجاوز الحد وطغى على الحق فهو طاغوت .

فالشيطان على ذلك هو رأس الطواغيت ، وهو أول طاغوت عرفه البشر ، قال الله تعالى عنه : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** ﴾ .[2]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ .[3]

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٦٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٠٢

(٣) سورة البقرة آية ٣٤ .

وقال سبحانه كذلك في سورة الإسراء ﴿ **وكان الشيطان لربه كفوراً** ﴾ .

فهذه الآيات نص صريح في كفر إبليس ، ومادام النص موجوداً فلا حاجة بنا إلى غيره .

أما أولياء الشيطان فقد أمرنا الله تعالى بقتالهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان** ﴾[1] فأمر الله للمؤمنين بقتال أولياء الشيطان يدل على أن أولياء الشيطان كافرون ، لأن جهاد المؤمنين لا يكون إلا للكافرين[2]، والشيطان لا يأمر الإنسان إلا بالكفر ، قال الله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر** ﴾[3] فهو إنما يأمر بالكفر وبالتالي فلا يرضى من أتباعه سوى الكفر ، والنص في القرآن صريح بكفر أولياء الشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[4] فالشياطين أولياء لغير المؤمنين .

فلا مرية ولا ريب في أن الشيطان كافر ، وأن أتباعه كافرون كذلك وقد بسطنا الأدلة والحمدلله .

أما الصنم وهو من الطواغيت الذين خضعت لهم رقاب العرب قديماً ولفترة طويلة ، ومازالت الرقاب تخضع للأصنام إلى اليوم ، أمام الجندي المجهول في كل بلد ، أو أمام تماثيل العظماء والكبراء أهل الفجور والعصيان ، أو أمام القبور والمزارات والمشاهد حيث يتمسحون بأحجارها ، ويتباركون بحديدها .

هذه ا لأصنام الحجرية الطاغية لا نقول بأنها كافرة أو مؤمنة ، لأنه كما ذكرنا فهي لا تعقل ، ومن نزع الله منه العقل والتفكير لا نحكم عليه بكفر أو إيمان حتى ولو كان من البشر ، فكيف إذا كان من الجماد أو الحيوان .

---

(١) سورة النساء آية ٧٦ .

*(٢) **ألم نؤمر بقتال البغاة من المؤمنين : «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا»** .

(٣) سورة الحشر آية ١٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

أما الكاهن فقد أخبرنا النبي ﷺ أنه في النار ، وذلك عندما جاءت إليه بعض الوفود ، فظنوا أنه ممن يزعم الاطلاع على الغيب ، فخبؤوا له شيئاً في أيديهم ، وقالوا له : أخبرنا ما هو ؟ فقال لهم : « إني لست بكاهن ، وإن الكاهن والكهانة والكهان في النار » .

أما السفهاء الذين يتوافدون إلى الكهان فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذين رواه مسلم فقال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

وقد ذهب العلماء إلى القول بكفر الكاهن والساحر لتصريح النبي صلى الله عليه وسلم : أنهما ليسا من المسلمين وذلك في الحديث الذي رواه البزار بإسناد جيد عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً : « ليس منا من تطير أو تُطيرَ له ، أو تكهن أو تُكُهن له ، أو سحر أو سُحر له ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وإنما قيل بكفر الكاهن والعراف إن ادعى الغيب ، ومن يقول بمثل قولهما بادعاء علم الغيب ، ومعرفة المستقبل ، وكذلك من والاهما وصدقهما ، لأن ذلك ينافي الإيمان ، وفيه تكذيب لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ .

فمن رد حرفاً من القرآن ثبت صدقه فقد كفر وارتد ، ومن صدق الكاهن والعراف فقد كذّب الآية السابقة وردها .

والساحر من الطواغيت وقد كفره الله بنص القرآن فقال : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سُليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس**

السحر وما أنزل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾[1]

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ في الآية تبرئة لسليمان من الكفر ، ولم يتقدم أن أحداً نسبه إلى الكفر ، ولكن اليهود نسبته إلى السحر ، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر .

وقد سمى الله السحر كفراً بنص الآية بقوله تعالى : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ فسمى تعلم السحر كفرا ، وأن المتعلم له كافر ، ولذلك روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[2] وفي الحديث إشارة واضحة إلى اعتبار السحر صنو الشرك وقرينه ولذا قال مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله بكفر الساحر ، وإليه ذهب الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه « التوحيد » : أن الساحر يكفر وأنه يقتل ولا يستتاب ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتل الساحر ، ففي البخاري عن بجالة بن عبدة قال : « كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة » قال : « فقتلنا ثلاث سواحر » وصح في الأثر عن الموطأ أن حفصة رضي الله عنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت .

وبهذا وضحت البينة وبان الدليل بأن الساحر كافر يقتل بكفره .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

وما أطلقه بعض العلماء على حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف بأنهما الطاغوت ، فإن ذلك مرده إلى أنهما كانا ينازعان الله في الحكم والتشريع ، فقد اشتهر أمرهما بين اليهود بأخذ الرشوة والحكم في أي قضية بغير ما أنزل الله في التوراة ، لأنهما كانا من اليهود ، وعلى ذلك كان يسارع إليهما أهل الباطل وأصحاب الأهواء ليحكما لهما بغير الحق .

قال الكلبي :« الجبت حيي بن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف ، وكانت اليهود يرجعون إليهما ، فسميا بهذين الاسمين لسعيهما في إغواء الناس وإضلالهم »[1] .

وحيي بن أخطب وكعب بن الأشرف من اليهود الذين غيروا في دينهم وسجدوا لأصنام قريش ، وألّبوا المشركين على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصفة الكفر واضحة فيهما وبمن اتّبعهما .

أما الحاكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت موسوم بالكفر والفسوق والعصيان : قال الله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ثلاث صفات له في كتاب الله سبحانه وتعالى يدل أقلها مذمة له أنه من الفاسقين ،

قال ابن كثير رحمه الله : « من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولايرجع إليهما فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر »[2]

قال في فتح المجيد :

« قال الإمام مالك رحمه الله « الطاغوت ما عُبد من دون الله » .

---

(١) تفسير الرازي ج ٥ ص ١٣٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥١٨ .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ورغب عنه ، وجعل لله شريكا في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله تعالى به في قوله : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**) وقوله تعالى : ﴿ ٤ : ٦٥ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ فمن خالف ماأمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ؛ أوطلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده فقد خلع رِبْقة الإسلام والإيمان من عنقه . وإن زعم أنه مؤمن » .

وقال ابن القيم رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ٧ : ٦٥ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ :

« قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أعظم فساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ؛ والدعوة له لا لغيره ؛ والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذاأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير اللهورسوله »[1] ا. هـ.

---

(١) الكلام منقول من كتاب فتح المجيد .

وقد بسطنا القول في كفر الحاكم بغير ما أنزل الله عند الحديث عنه في هذا الكتاب فليرجع إليه من طلب الزيادة .

والمتمعن في كتاب الله سبحانه وتعالى يدرك أن الطاغوت كافر ، وأن أتباعه لا يؤمنون بالله ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور** ﴾[1]

قال قتادة : الظلمات الضلالة ، والنور الهدى .

ثم يقول الله في الآية نفسها : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

ويقول سبحانه كذلك : ﴿ **يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[2] .

يقول القرطبي في جامع أحكام القرآن : « يخرجهم من ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات » .

فدل لفظ الظلمات على الكفر ، ودل لفظ النور على الإيمان ، ودل بأن الطاغوت يخرج الكفار من الهدى والإيمان إلى الكفر والضلال ، ودل على التعاضد والتعاون بين الطاغوت وبين الكافرين لقول الله في كتابه : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾[3] فالذي تولى إخراج الكفار من النور إلى الظلمات هو ولي لهم ، وهم أولياء له بصريح النص القرآني ، فكان هو منهم وبالتالي فهو كافر .

والآية صريحة بأن أتباع الطاغوت كفار ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم**

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(٢) سورة المائدة آية ١٦ .

(٣) سورة الأنفال آية ٧٣ .

الطاغوت ﴾ بل هي صريحة بكفر الأتباع والنص على كفرهم بقوله تعالى : **﴿ والذين كفروا ﴾**[1].

فالطاغوت ومن والاه كفار بنص القرآن الكريم وهدي السنة النبوية .

وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن الطاغوت صنماً أو كاهناً أو غيرها ، وما يدل على أن أتباع الطاغوت وأعوانه غالبهم من اليهود ، قال الله تعالى : **﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ! أولئك لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾** [2]

قال ابن إسحاق : « حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ـ أو عن سعيد ابن جبير ـ عن ابن عباس قال : « كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة ، حيي بن أخطب ، وسلام بن الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن الحقيق ، وأبو عمار ، ووحوح بن عامر ، وهودة بن قيس . فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير . . . فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم . فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله ـ عز وجل ـ : **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾** . . إلى قوله عز وجل : **﴿ وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾** . . وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم . وقد أجابوهم ،وجاءوا معهم يوم الأحزاب ؛ حتى حفر

---

* (١) «الذين كفروا» مبتدأ وخبره جملة «أولياؤهم الطاغوت» أي : الكافرون يجعلون الطواغيت أولياء لهم . وهذا لا يفيد أن من يتخذ الطاغوت وليّا له كافر . ولو كان المراد هذا لكان ينبغي أن يكون التعبير والذين يتخذون الطواغيت أولياء كافرون أو نحو ذلك .

(٢) سورة النساء آية ٥١ .

النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه حول المدينة الخندق،وكفى الله شرهم ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ .

ذهب عكرمة ألى أن الجبت والطاغوت صنمان كان المشركون يعبدونها .

وقال عمر رضي الله عنه : **إن الجبت السحر ، وإن** الطاغوت : الشيطان .

وأما سعيد بن جبير فقد قال بأن الجبت الساحر ، وأن الطاغوت الكاهن .

ومهما قيل في معنى الجبت والطاغوت فإن عبادتها والإيمان بها كفر ، فقد كان اليهود يتبعون الباطل الذي يشرعه لهم السحرة والكهان والأحبار ، فهم أتباع الطاغوت وهي تلك الشرائع الطاغية التي شرعها لهم شياطينهم من الإنس والجن .

وقد جاءت الآية التالية بنص صريح بأن أتباع الطاغوت هم اليهود ، قال الله تعالى : ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل** ﴾[1] يقول القرطبي : المراد هنا اليهود ، ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رؤوسهم افتضاحا .

وفيهم يقول الشاعر :

فلعنة الله على اليهود   إن اليهود إخوة القرود

وإن من أتباع الطاغوت وأعوانه الذين يزعمون كذبا أنهم من المؤمنين ، هؤلاء الذين قال الله عنهم : ﴿ **ألم تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول**

(١) سورة المائدة آية ٦٠ .

رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾[1]

روى يزيد بن زُريع عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصـومة ، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه علم أنه لايقبل الرشوة ، ودعا المنافق اليهودي إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذون الرشوة في أحكامهم ، فلما اختلفا اجتمعا على أن يحكما كاهناً في جهينة ، فأنزل الله تعالى فيهما هذه الآية .

وقد تعددت طرق هذه الرواية وجميعها تدور حول هذا المعنى ، وتدل على أن أتباع الطاغوت وأعوانه هم المنافقون واليهود .

فهؤلاء هم الطواغيت ، وهؤلاء هم أتباعهم ، بئس التابع ، وبئس المتبوع .

---

(١) سورة النساء آية ٦٠ ـ ٦١ .

خطر الطواغيت

إن الأمة التي تعطي قيادها للطواغيت تحكم على نفسها بالتدمير والإندثار ، فالطاغوت متجاوز لحد المعقول والمقبول ، وهو بالتالي متبع للهوى والضلال ، وما دخل الهوى والضلال في أمر إلا أفسده ، وما دخلا في أمة إلا أهلكاها .

ولذا فإن خطر الطواغيت قائم في الناس ، ومدمر لحضارتهم ولا يظنن بشر عاقل أن أمر الطواغيت قد مضى وانتهى بل العكس هو الصحيح ، فإنهم في عصرنا ربما كانوا أشد شوكة ، وأكثر قوة ، وأبلغ أثراً ، وأضل عقلاً وديناً ، وهم في جاهلية هي أشد من الجاهلية الأولى فالجاهلية الأولى ما كانت تملك وسائل العلم الحديث لتخدير العقل ، وقتل الشعور ، وتشويه التصور في القيم والمعتقدات ، وفي جميع مناحي الحياة .

وسنقف على دراسة مفصلة نوعا ما عن كل واحد من الطواغيت ، وذلك في الفصول القادمة إن شاء الله .



الفصل الثالث

الطاغوت الأول

الحاكم بغير ما أنزل الله

وصف الله الحاكم بغير ما أنزل الله في كتابه الكريم فقال :

١ ــ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ سورة المائدة آية ٤٤ .

٢ ــ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ سورة المائدة آية ٤٥ .

٣ ــ ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ سورة المائدة آية ٤٧ .

قال القرطبي[١] نقلاً عن ابن عباس ومجاهد في معنى هذه الآيات :

« أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن ، وجحداً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أي معتقدا ذلك ومستحلاً له ، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .

وقال ابن عباس في رواية له :« ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلاً يضاهي أفعال الكفار » .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الجزء السادس .

قال الزمخشري : « ومن لم يحكم بماأنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون ، وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغيرها »[1] .

وقال أبو حيان : « والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم »[2] .

يقول سيد قطب رحمه الله :

« إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي ـ ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان ـ والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال :

أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى ؛ وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله ، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟وبتعبير آخر : « أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس ؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟ ؟ »

الله ـ سبحانه ـ يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو . وإن شرائعه التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها ؛ هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الناس ، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام .

---

(١) الكشاف جزء ١ ص ٤٩٦ .

(٢) البحر : جزء ٣ ص ٤٩٢ .

والله ـ سبحانه ـ يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولا ترخص في شيء منه ، ولا انحراف عن جانب ولو صغير . وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل ، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير !

والله ـ سبحانه ـ يقول : إن المسألة ـ في هذا كله ـ مسألة إيمان أو كفر ؛ أو إسلام أو جاهلية ؛ وشرع أو هوى . وإنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله ـ لا يخرمون منه حرفاً ولا يبدلون منه شيئاً ـ والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله ، وأنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة فهم في نطاق الإيمان ، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون ، وأن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضاءه في أمورهم فهم مؤمنون . . وإلا فما هم بالمؤمنين . . ولا وسط بين هذا الطريق وذاك ، ولا حجة ولا معذرة ، ولا احتجاج بمصلحة . فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس ؛ ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية . وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة . وليس لأحد من عباده أن يقول إني أرفض شريعة الله ، أو إنني أبصر بمصلحة الخلق من الله . . فإن قالها ـ بلسانه أو بفعله ـ فقد خرج من نطاق الإيمان » .

« والمناط هو الحكم بما أنزل الله من أحكام ، وقبول هذا الحكم من المحكومين ، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام » .

إن الاعتبار الأول في هذه القضية هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر ـ بلا شريك ـ أو رفض هذا الإقرار . . ومن هنا هي قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو إسلام . . والقرآن كله معرض بيان هذه الحقيقة . .

إن الله هو الخالق . . خلق هذا الكون ، وخلق هذا الإنسان . وسخر ما في السماوات والأرض لهذا الإنسان . . وهو ـ سبحانه ـ متفرد بالخلق ، لا شريك له في كثير منه أو قليل .

وإن الله هو المالك . . بما أنه هو الخالق . . ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما . . فهو ـ سبحانه ـ متفرد بالملك . لا شريك له في كثير منه أو قليل .

وإن الله هو الرازق . . فلا يملك أحد أن يرزق نفسه أو غيره شيئاً . لا من الكثير ولا من القليل . . وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس . . بما أنه هو الخالق المالك الرازق . . وبما أنه هو صاحب القدرة التي لا يكون بدونها خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر . وهو ـ سبحانه ـ المتفرد بالسلطان في هذا الوجود .

والإيمان هو الإقرار لله ـ سبحانه ـ بهذه الخصائص ـ الألوهية ، والملك ، والسلطان . . متفرداً بها لا يشاركه فيها أحد . والإسلام هو الاستسلام والطاعة لمقتضيات هذه الخصائص . . هو إفراد الله ـ سبحانه ـ بالالوهية والربوبية والقوامة على الوجود كله ـ وحياة الناس ضمناً ـ والاعتراف بسلطانه الممثل في قدره ؛ والممثل كذلك في شريعته . فمعنى الاستسلام لشريعة الله هو ـ قبل كل شيء ـ الاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته وسلطانه . ومعنى عدم الاستسلام لهذه الشريعة ، واتخاذ شريعة غيرها في أية جزئية من جزئيات الحياة ، هو ـ قبل كل شيء ـ رفض الاعتراف بألوهية الله وربوبيته وقوامته وسلطانه . . . ويستوي أن يكون الاستسلام والرفض باللسان أو بالفعل[1] دون القول . . وهي من ثم قضية كفر أو إيمان ؛ وجاهلية أو إسلام . ومن هنا يجيء هذا النص : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ . . ﴿ **الظالمون** ﴾ . . ﴿ **الفاسقون** ﴾[2] .

الاعتبار الثاني هو اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع

---

*(١) ترك الفعل قد لا يكون رفضاً بل هو معصية مرجعها تأثير الهوى والشهوة وضعف الإرادة أمامها مع الاعتراف بالمعصية. وهذا لا يكون كفراً إلا على رأي الخوارج وهو رأي مخالف لنصوص الشريعة وإجماع المسلمين .

*(٢) هي نصوص ثلاثة متكاملة تطبق على ثلاثة فرقاء لا على فريق واحد .

الناس . . هذه الأفضلية التي تشير إليها الآية الأخيرة في هذا الـدرس : ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟** ﴾ . .

والاعتـراف المطلق بهـذه الأفضلية لشـريعة الله ، في كـل طور من أطـوار الجماعة ، وفي كل حالة من حالاتها . . هو كذلك داخل في قضية الكفر والإيمان . . فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية. . ثم يدعي ـ بعد ذلك ـ أنه مؤمن ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ . .

بهذا الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم الـذي تحمله « من » الشرطيـة وجملة الجواب . بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل . .

والعلة هي التي أسلفنا . . هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية .

ومن يحكم بغير ماأنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصـائصها في جـانب[1] ، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر . . وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ، وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل ـ وهو أقوى تعبيراً من الكلام ـ ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟!

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة ، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه . . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد .

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ . .

---

*(١) ليس دائماً .

والتعبير عام ، ليس هناك ما يخصصه ؛ ولكن الوصف الجديد هنا هو « الظالمون »[1].

وهذا الوصف الجديد لا يعني أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر . وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر باعتباره رافضاً لألوهية الله ـ سبحانه ـ واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس .

وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم . فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعريضها لعقاب الكفر وبتعريض حياة الناس ـ وهو معهم ـ للفساد .

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ . . فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول ؛ ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو « من » المطلق العام » .

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ . .

والنص هنا كذلك على عمومه وإطلاقه . . وصفة الفسق[2] تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل . وليست تعني قوماً جدداً ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى . إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

الكفر برفض ألوهية الله ممثلاً هذا في رفض شريعته . والظلم بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم . والفسق بالخروج عن منهج الله واتباع

❊ (١) كلّ كافر ظالم، فإضافة وصف الظلم ليس لإضافة الظلم لمعنى الكفر، بل لأن مستوى المخالفة لا ترتقي إلى مستوى الكفر بل إلى مستوى الظلم .

❊ (٢) الفسق خروج عن الطاعة وليس من مقتضاه الكفر .

غير طريقه . . فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل . ويبوء بها جميعاً دون تفريق .

وقد وضح الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقا رحمه الله ، الحالات التي إن فعلها الحاكم دخل في الكفر المخرج من الإسلام وهي ستة أنواع :

الأول : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله ، وهو معنى ما روى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير : أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي ، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلا من أصول الدين أو فرعا مجمعا عليه ، أو أنكر حرفا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قطعيا ، فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة .

الثاني : ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقا ، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع ، إما مطلقا أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث ، التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال ، وهذا أيضا لا ريب أنه كفر ، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار ، على حكم الحكيم الحميد .

وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان ، وتطور الأحوال وتجدد الحوادث ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، نصا أو ظاهرا أو استنباطا أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله ، وليس معنى ما ذكره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال ما ظنه من قل نصيبهم أو عدم من معرفة مدارك الأحكام وعللها ، حيث

ظنوا أن معنى ذلك بحسب، ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية ، وأغراضهم الدنيوية وتصوراتهم الخاطئة الوبية ، ولهذا تجدهم يحامون عنها ، ويجعلون النصوص تابعة لها منقادة إليها ، مهما أمكنهم فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه ، وحينئذ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان مراد العلماء منه : ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية ، والعلل المرعية ، والمصالح التي جنسها مراد الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن المعلوم أن أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل ، وأنهم لا يقولون إلا على ما يلائم مراداتهم ، كائنة ما كانت ، والواقع أصدق شاهد .

الثالث : ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكن أعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين اللذين قبله ، في كونه كافرا الكفر الناقل عن الملة ، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق ، والمناقضة والمعاندة لقوله عز وجل : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ . ونحوها من الآيات الكريمة ، الدالة على تفرد الرب بالكمال ، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين . في الذات والصفات والأفعال ، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه .

الرابع : ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله ، فضلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه ، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ، فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه ، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه .

الخامس : وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ، ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ورسوله ، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية ، إعدادا وإمدادا وإرصادا وتأصيلا ، وتفريعا وتشكيلا وتنويعا وحكما وإلزاما ، ومراجع ومستندات ، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستندات ، مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة

رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلهذه المحاكم مراجع ، هي : القانون الملفق من شرائع شتى ، وقوانين كثيرة ، كالقانون الفرنسي ، والقانون الأمريكي ، والقانون البريطاني ، وغيرها من القوانين ، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك .

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة ، مفتوحة الأبواب ، والناس إليها أسراب إثر أسراب ، يحكم حاكمها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب ، من أحكام ذلك القانون ، وتلزمهم به ، وتقرهم عليه ، وتحتمه عليهم . فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة .

وذكر أدلة جميع ما قدمنا على وجه البسط معلومةمعروفة ، لايحتمل ذكرها هذا الموضع .

فيا معشر العقلاء ! ويا جماعات الأذكياء وأولي النهى ! كيف ترضون أن تجري عليكم أحكام أمثالكم ، وأفكار أشباهكم ، أو من هم دونكم ، ممن يجوز عليهم الخطأ ، بل خطأهم أكثر من صوابهم بكثير ، بل لا صواب في حكمهم إلا ما هو مستمد من حكم الله ورسوله ، نصا أو استنباطا ، تدعونهم يحكمون في أنفسكم ودمائكم وأبشاركم ، وأعراضكم وفي أهاليكم من أزواجكم وذراريكم ، وفي أموالكم وسائر حقوقكم ، ويتركون ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله ، الذي لا يتطرق إليه الخطأ ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وخضوع الناس ورضوخهم لحكم ربهم خضوع ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه ، فكما لا يسجد الخلق إلا لله ، ولايعبدون إلا إياه ، ولا يعبدون المخلوق ، فكذلك يجب ألا يرضخوا ولا يخضعوا أوينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم

الحميد ، الرؤوف الرحيم ، دون حكم المخلوق ، الظلوم الجهول ، الذي أهلكته الشكوك والشهوات والشبهات ، واستولت على قلوبهم الغفلة والقسوة والظلمات ، فيجب على العقلاء أن يربؤوا بنفوسهم عنه ، لما فيه من الاستعباد لهم ، والتحكم فيهم بالأهواء والأغراض ، والأغلاط والأخطاء ، فضلا عن كونه كفرا بنص قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .

السادس : ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر ، والقبائل من البوادي ونحوهم ، من حكايات آبائهم وأجدادهم ، وعاداتهم التي يسمونها « سلومهم » ، يتوارثون ذلك منهم ، ويحكمون به ويحصلون على التحاكم إليه عند النزاع ، بقاء على أحكام الجاهلية ، واعراضا ورغبة عن حكم الله ورسوله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله[1] .

وقد احتج بعضهم بقول ابن عباس : « بأنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه »

فالكفر الذي عناه ابن عباس رضي الله عنه وقال : « بأنه لا يخرج من الملة بقوله : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه »[2] فقد فصل القول في ذلك ابن القيم رحمه الله فقال :

« فأما الكفر فنوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر .

فالكفر الأكبر : الموجب للخلود في النار .

والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود ، كما في قوله تعالى ـ وكان مما يتلى فنسخ لفظه ـ : ﴿ **لا ترغبوا عن آبائكم . فإنه كفر بكم** ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث « اثنتان في أمتي ، هما بهم كفر : الطعن في النسب ،

---

(١) تحكيم القوانين .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

والنياحة » وقوله في السنن « من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد » وفي الحديث الآخر « من أتى كاهناً أو عرَّافاً ، فصدقه بما يقول . فقد كفر بما أنزل الله على محمد » وقوله « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى ﴿ ٥ : ٤٤ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال ابن عباس « ليس بكفر ينقل عن الملة . بل إذا فعله فهو به كفر . وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر » وكذلك قال طاووس . وقال عطاء « هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق » .

ومنهم : من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له . وهو قول عكرمة . وهو تأويل مرجوح . فإن نفس جحوده كفر ، سواء حكم أو لم يحكم .

ومنهم : من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله . قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام . وهذا تأويل عبدالعزيز الكناني . وهو أيضاً بعيد . إذا الوعيد على نفي الحكم بالمنزل . وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه .

ومنهم : من تأولها على الحكم بمخالفة النص ، تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل . حكاه البغوى عن العلماء عموماً .

ومنهم : من تأولها على أهل الكتاب . وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما . وهو بعيد ، وهو خلاف ظاهر اللفظ . فلا يصار إليه .

ومنهم : من جعله كفراً ينقل عن الملة .

والصحيح : أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين ، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم :

فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة . فهذا كفر أصغر .

وإن اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه . مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر .

وإن جهله وأخطأه : فهذا مخطىء ، له حكم المخطئين»[1] .

فالحاكم الجائر المغير لشرع الله ، الذي استبدله بغيره كافر كفراً يخرجه من الملة ، ويوجب على الأمة قتاله حتى تتخلص منه .

وقد أوجب الله التحاكم إلى الشريعة وإليك الأدلة .

---

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٣٥ .

الفصل الرابع



وجوب التحاكم إلى الشريعة الإسلامية

لقد أوجب الله سبحانه وتعالى التحاكم إلى ما شرعه سبحانه وبينه رسوله ، وأمر سبحانه وتعالى بترك التحاكم إلى الطاغوت ، فقال سبحانه : **﴿ ألم تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾**[1] .

ونفى سبحانه وتعالى الإيمان عن الذين يتحاكمون إلى غير شريعة الله في أمورهم وما يحدث بينهم فقال سبحانه وتعالى : **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليما ﴾**[2] .

فالتحاكم إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان ولوازمه .

وإليك المباديء والأسس التي تقتضي وجوب التحاكم إلى شرع الله وإعتبار ذلك من صلب الايمان ومقتضاه .

---

(١) سورة النساء آية ٦٠ .

(٢) سورة النساء آية ٦٥ .

أولاً : تحقيق العبودية لله تعالى

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته والتقرب إليه بالطاعة والمحبة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون* ما أُريد منهم من رزق وما أُريد أن يطعمون** ﴾[1] وجعل المثوبة على حسن هذه الطاعة وصحتها ، والجزاء على التقصير في الطاعة أو رفضها ، فكان الإنسان مدار الابتلاء والاختبار ، فقال عز من قائل : ﴿ **تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فَلَيَعلمنَّ الله الذين صدقوا وليَعلَمنَّ الكاذبين** ﴾[3] .

فالاختبار والابتلاء يتضمن الصبر عن المعاصي والآثام ، والاستقامة على الطاعة والمحبة لله سبحانه وتعالى ،ولا يكون ذلك إلا بتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى .

والعبادة : هي إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة ، والزكاة ، والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار

(١) سورة الذاريات ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) سورة الملك آية ١ ـ ٢ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٢ ـ ٣ .

واليتيم ، والمسكين ، وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضى بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه . وأمثال ذلك : هي من العبادة لله[1] .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، والتي خلق الخلق لها ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدُون** ﴾[2] .

ومقتضى العبادة لله أن يذعن العبد لله إذعاناً كاملاً ، وأن يلتزم شرع الله في جميع ما يأتي أو يذر ، وأن يجعل حياته كلها رهن أوامر الله ونواهيه .

والانسان إن لم يخضع لله في الطاعة والعبودية خَضَعَ لسواه من البشر ، أو الشجر ، أو الحجر ، أو النظم الفاسدة ، والعقائد الضالة .

والإنسان إن لم ينقاد لله في جميع شأنه ، أسلم قياده للطاغوت ، وقد نُهي عن ذلك قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[3] .

فأي خضوع لأية سلطة غير الله ، هو خضوع للطاغوت ، سواء كان هذا الخضوع للأهواء والشهوات ، أو للقوة والبطش ، أو للقوانين الوضعية والنظم البشرية وغير ذلك ، وسواء كان هذا الخضوع لها عن قناعة أو تكبر وعناد ، فإنه خضوع للطاغوت ، وخضوع لغير الله .

---

(١) العبودية لابن تيمية .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٣) سورة النحل آية ٣٦ .

فالحاكم الذي يسوس الناس بغير ما أنزل الله ، ويأخذ شرعه وقوانينه من زبالات عقول الافرنج الغربي أو الشرقي ، فقد عَبَدَ ذلك المصدر الذي يأخذ عنه ، وخضع له خضوع العبد الذليل .

فالحاكم الذي يصل إلى الحكم بغير الحق تجد في قلبه ذلة وخضوع لمن أوصلوه للحكم ، وإن كان في الظاهر مقدماً فيهم ، رئيساً عليهم ، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال ، ويعطيهم العهود والمواثيق ، ويعفو عن حقوقه عندهم ، ويخون أمته من أجلهم .

فالعبودية متحققة في الإنسان لا محالة ، فإما أن تكون لله الذي خلقه ورزقه ، وإما أن تكون للهوى والطاغوت .

ومن كان عبداً لغير الله يكون مشركاً .

وبعض هؤلاء الطغاة الذين يرفضون العبودية لله ، إنما يرفضونها استكباراً وعتواً ، ولذا كانوا أعظم إشراكاً بالله ، وكانوا أكثر قربى من اليهود لأنهم شركاء في ذات الصفة ـ الكبر والشرك ـ قال الله تعالى في اليهود : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾[1] .

فهؤلاء أخذوا من صفات اليهود فتطبعوا بها ، فتراهم يتكبرون على الله ، ويفسدون في الأرض ، ويقتلون الدعاة والعلماء وشباب الإسلام ، ولا تجد في قلوبهم رأفة ولا رحمة ، بل إن كثيراً من هؤلاء يقيمون الأفراح ويشربون الخمور على أشلاء الأجسام الممزعة ، والرؤوس المتطايرة ، ﴿ **وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً** ﴾[2] وبذلك يعطلون الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلها .

---

(١) سورة البقرة آية ٨٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٥ .

« إن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . ولقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

فالوظيفة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي العبودية لله ، أن يكون هناك عبد ورب ، عبد يَعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر ، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً اخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1] . . ففي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها . وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

فالعبادة هي : التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

الجوارح ، وكل حركة في الحياة ، التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

وبذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض جهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه »[١] .

فكمال المخلوق إنما تكون في كمال عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية إزداد كماله وعلت درجته ، وكان قريباً من الله ، قريباً من الحق ، قريباً من دعوة الأنبياء والمرسلين الذين دعوا بهذه الدعوة ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله** ﴾[٢] وبالعبودية وصف الله الأنبياء والأصفياء ، وبها نعت أكمل الخلق وأحبهم له فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا** ﴾[٣] فقد سمى محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً ، ولو لم تكن هذه أسمى الصفات وأكرم الخصال ما نعت بها نبيه صلى الله عليه وسلم .

وإقامة دولة الإيمان ، والتحاكم إلى شرعه في السياسة والإقتصاد ، والحياة العامة ، والحياة مع الأمم وغير ذلك ، مدار تحقيق العبودية لله ، فوجب على الأمة العمل لتحقيق هذا الغرض .

فليست العبودية لله في الصلوات والزكوات والحج والشعائر التعبدية فقط ، إنما العبودية لله في شئون الفرد والجماعة والدولة ، وفي ما يحتاجه المسلم في حياته .

---

(١) في ظلال القرآن .

(٢) سورة النحل آية ٣٦ .

(٣) سورة الإسراء آية ١ .

والإسلام دين كامل ما ترك شأناً يحتاجه الإنسان إلا وبينه ، وعالجه ووضح موقف الإسلام منه ، فعرف المسلم كيف يتعامل مع الموجودات من نعومة أظفاره إلى أن يصل إلى لحده .

وليس ذلك فقط ، بل فتح الإسلام باب الاجتهاد للعلماء والفقهاء ليجدوا حلولا لكل ما يجد من أمور حياتية يحتاجها المسلمون في حياتهم ولم يتعرض لها من سبقهم لاستغناء حياتهم عنها ، ولم يترك الإسلام الاجتهاد هكذا يلج بحره كل غاد ورائح بل وضع له الضوابط والموازين التي تكفل للجماعة المسلمة القيام وفق نواميس الكون التي أرادها الله .

ثانياً : الاستجابة للقرآن والإيمان

أمرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأخذ كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1] فالأمر الإلهي في الآية عام يشمل جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في جميع مجالات الحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، دون تبعيض أو استثناء ، بل يجب على الأمة أن تأخذ بكل ما جاء به .

ومن عجب أن نجد بين الحكومات من تقر الأخذ بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في شئون الأحوال الشخصية ، وهي ذاتها ترفض ما جاء به من مبادىء هامة وخطيرة في السياسة المالية والاقتصادية ، وفي الحكم والقتال وغير ذلك ، وحتى الأحوال الشخصية لم تسلم عند كثير من الدول - التي تدعي الاسلام - لم تسلم من التحريف والتغيير والتبديل .

ولم يكتف القرآن بالأمر بأن نأخذ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بل قرن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم بطاعة الله سبحانه وتعالى فقال الله عز وجل : ﴿ **ومن يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾[2] وكيف تتحقق الطاعة لله ولرسوله إذا لم نتبع الدين الذي شرعه في جميع ما جاء به ، وأن ننزجر ونرتدع عن جميع مانهانا عنه وزجرنا عن فعله .

فقد أمرنا أن نحكم بما أنزل الله فقال عز من قائل : ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾[3] واعتبر القرآن كل حكم بغير ما أنزل الله هوى وضلالاً ، واتباعاً

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة النساء آية ٨٠ .

(٣) سورة المائدة آية ٤٨ .

للهـوى فقـال الله سبحـانـه : ﴿ **وإن احكم بينهم بمـا أنـزل الله ولا تتبـع أهواءهم** ﴾[1] وقد جعل الحكم له وحده وربطه ربطاً وثيقاً بعبـادته فقـال : ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[2] فكمال عبادته سبحانه وتعالى مرتبط بكمال الانقيـاد إلى حكمه بمـا يحكم بـه في شئـون النفس وشئـون الحيـاة بكـل جـوانبهـا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

أمـا في مجال الـزجر والـردع فقد نهانـا عن الحكم بـالهـوى والـرأي فقـال : ﴿ **فـاحكم بين النـاس بالحق ولا تتبـع الهوى** ﴾[3] فـأي حكم بـالـرأي والـرغبـة الشخصية على خلاف حكم الله ورسوله وهو محض ضلال ، وهو جاهلية جديدة ، وقد ذم الله أولئك الذين يحكمون بالهوى وتعجب من حالهم ومن رغبتهم : الحكم بغير ما أنزل الله فقال : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾[4] .

فالمفروض أن الجاهلية حقبـة تاريخيـة قد انتهت بمجيء الإسـلام ، وذهبت أحكـامها أدراج الـرياح ، وحـل مكانها التشريـع الربـاني المستمـد من الله العليم الخبير .

أمـا أن يُصرَّ أُناس عـلى الحكم بغير مـا أنزل الله ، وأن يحكمـوا بين النـاس بالقوانـين الوضعيـة ، ذات المرجـع البشري المجبول عـلى حب الذات والمصلحـة الشخصية وعدم الخلو من الغرض، فذلك أمر ما نراه إلا دُبِّر بليل ، ومؤامـرة على الشريعة الإسلامية لا يشترك فيها إلا كل عدو حاقد ، وكل مأفون مـأجور ، أسلم قياد نفسه ومصلحـة أمته وأمـر دينه إلى عـدوه وخصمه ، وأخـذ هو يصـارع شعبه ويغالبه حتى يرغمه على قبول حكمه والتسليم لضلالاته .

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .

(٢) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٣) سورة ص آية ٢٦ .

(٤) سورة المائدة آية ٥٠ .

فالإنسان المخلص لأمتـه وشعبه ، والقـائد المحب لخـير بلاده ، يحكمهـا بما يحقق رغبـات أمته ، وبمـا يتفق مع تـطلعاتهـا وآمالهـا ، وبما تعتـبره أعز من النفس والمال والولد وهو دينها وحكم ربها .

ولعمر الحق إنه لأمر عجيب ومريب أن يـدعي هؤلاء الحكام حـرصهم على مصلحـة أمتهم ، ثم نراهم ينصبـون راجمات الصـواريـخ لقتـل أمتهم ، وتمـزيق جسـدها وطمس معـالمها ، والإسـاءة إلى مقـدسـاتهـا ، ومسـخ تـراثهـا وتشـويـه حضارتها .

إنها الخيانة للأمة والمؤامرة مع عدوها عليها .

إن بين المسلمين فئة من المنافقين الذين نهلوا من معين المستشرقين ، وأُرضعوا لبان الثقافة الغربية ، التي توهن من شأن الشريعة الإسلامية وتصم المعتصمين بها بالتأخر والرجعية ، وهؤلاء يرون أن الغرب لم ينهض من كبوته إلا بعد أن نفض يده من الدين وأهله ، حيث وقف رجال الكنيسة حجر عثرة في سبيل العلم والتقدم والمدنية ، ويعتقدون أنه لا سبيل لنهوض أمتهم إلا بالعلمانية والانسلاخ من الدين وتركه جانبا أسوة بالحضارة الغربيـة ، متجاهلين الفـوارق الواضحـة بين طبيعـة الإسلام وطبيعة المسيحية ، فالإسـلام يدعـو إلى العلم والمعرفـة وإقامـة الحضارة الإنسانية المتكاملة في جوانب الحياة المتعددة المادية والروحية والعقلية على أساس من توحيد الله تعالى والنظرة السديدة الصائبة إلى الكون والإنسان والحياة بما يحقق السعادة للبشرية كلها .

إن هؤلاء يتسنمون مراكز القيادة في الأمة بهذه العقيدة ويضعون نصب أعينهم الانسلاخ من شريعة الإسلام أو من الدين كله ، ويعتبرون أن إقامة الحدود وتحكيم الشرع وحشية لا تلائم عصر المدنية ، ولا يجرؤون على إعلان ردتهم وكفرهم حتى لا تنقم عليهم الأمة المسلمة التي يحكمونها ، وهم في حاجـة إلى أن يتملقوهـا باسم

الإسلام ، وحين يتشدقون يحتجون بأنهم ما أرادوا تحكيم القوانين الوضعية إلا لمصلحة الأمة حرصا على تقدمها وإزدهارها ، ويبلغ بهم النفاق مبلغه حيث يحلفون كاذبين أنهم ما أرادوا بصنيعهم هذا إلا الاحسان ، وذلك هو ما حكاه القرآن عن المنافقين لأن النفاق هو النفاق في كل عصر ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا** ﴾[1] .

إن مصلحة الأمة المسلمة في أن تُحكم بدينها ، وأن تقاد بقرآنها ، وأن تجاهد لرفع كلمة ربها ، وأن تجتمع لنصرة دينها ، فمن كان حريصا على مصلحتها فليعمل **على تحقيق رغبتها ، ومن كان خائناً لها فليكشف القناع عن صليبيته أو شيوعيته أو يهوديته وعمالته .**

إن الحكم بما أنزل الله يتعارض مع شهوات المستبدين ورغبات الظالمين ، وكثيرا ما يستولي هؤلاء على أزمة الحكم ، ويقبضون بأيديهم على كل مرفق من المرافق للاستبداد بالأمور كلها ، ويضربون بيد من حديد على الرأي الحر والفكر المستنير ما دام يتعارض مع أهوائهم ومصالحهم ، ويمنعون أهل الحق عن المجاهرة به والصمود في سبيله ، ولذلك يبطشون بهم ، فيزجونهم في غياهب السجون ، ويلحقون بهم الأذى في أموالهم وأعراضهم وأهلهم وأوطانهم .

وتحت وطأة الاضطهاد والظلم تقع فئة من ضعاف الإيمان في شباك الظالمين ، فيستكينون لهم وينصاعون لرغباتهم ويكتمون شريعة الله التي استحفظوا عليها ، وقد يبلغ الضعف بهم مبلغه طمعا في عرض من أعراض الحياة الدنيا فيتملقون الطغيان ، ويمالئون ذوي الشهوات ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويصدرون

---

(١) سورة النساء آية ٦١ ـ ٦٢ .

الفتاوي التي تبرر خروج الحكام عن شرع الله وتلتمس لهم المعاذير ، ولذا نهى الله علماء اليهود الذين تهاونوا في تحكيم التوراة تحت تأثير هذا الواقع : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾(١) فأمرهم الله أن لا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بفتاويهم عرض الحياة الدنيا .

وهذه البلوى من أخطر ما تواجهه الجماعة المسلمة في مسيرتها المباركة ، إذ يخرج عليها بعض أبنائها ، أو أحد علماء السوء يباركون للحاكم بطشه وظلمه ، ويبررون له حكمه بغير ما أنزل الله ، ويأخذون على عاتقهم رمي المؤمنين بأقبح الألقاب وأسوأ العبارات ، وأبشع الصفات .

إن الوقوف عند حدود الشريعة جهاد لهوى النفس لايصبر عليه إلا أهل الإيمان ، وللنفس أهواؤها المختلفة ، وشريعة الإسلام تكبح جماح الأهواء والنزعات لتستقيم **النفس ، ويتحقق الخير للفرد والإنسانية ، وأهواء الحكم أشد تسلطا على النفس وبعدا عن الحق ، ومهما التمس الناس المعاذير لتبرير الخروج عن شريعة الله وتحكيم القوانين الوضعية ، فباعث ذلك الهوى ، وقد جرت سنة الله على اختلاف الناس في اتجاهاتهم ومذاهب حياتهم أن سلطان الحق هو الذي يجمعهم على كلمة سواء ، وليس سلطان الهوى وترضية النفوس ، ولذا حذر الله تعالى** رسوله من ذلك حتى لا يفتن عن شيء من حكم الله : ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾(٢) .

عندما تمرض النفس وتقع أسيرة الهوى والشهوة ، تنظر بمنظار الهوى ، وهوى

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٢) سورة المائدة آية ٤٨ .

النفس لا يأتي عن طريق الحق والحكم بما أنزل الله لأن الهوى غي وظلم ، إلّا من كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وأبان القرآن أسباب كفر أهل الجاهلية وأرجع ذلك إلى كبرهم وكراهيتهم للحق **﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهوآءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾**[1] وطواغيت الأرض الذين يتحكمون في عباد الله بأهوائهم ومطامعهم وتعسفهم واستبدادهم يكرهون الإسلام لأنه الدين الحق ويتمردون على حكمه لأنه لا يقضي إلا بالعدل وهم متجبرون ظالمون .

فالحكم إما أن يكون لله ، وإما أن يكون للهوى والضلال والجاهلية الجهلاء .

والناس في الحياة إما أن يتبعوا ما أنزل الله ويعترفوا لله بالحكم والتشريع ، وهذا هو الإسلام ، وإما أن يتبعوا دونه أولياء من الشرق أو الغرب ، فهذا هو الشرك والضلال المبين .

إن أمر الحياة البشرية لا يستقيم إلا بالتوافق مع النواميس الربانية ، وقيادة هذه البشرية وفق أحكام وتعاليم خالق هذه النواميس وذلك بتحكيم شرعه وقيادة خلقه بما شرعه على ألسنة رسله وأنزله في كتبه ، عند ذلك فقط تستقيم الحياة البشرية ، وتنعم الإنسانية بربيع دافء جميل ، تنام فيه ملء عينيها لا تخاف الذرة ولا الدمار ولا الهلاك .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٧٠ .

ثالثاً : الخلافة في الأرض

من الأسس والمبادىء التي تدعونا إلى القول : « بوجوب التحاكم إلى شرع الله » الخلافة البشرية في الأرض .

إن الله سبحانه إنما خلق الإنسان ليعبده في الأرض ، ويقيم شرعه في الناس ، وليكون خليفته على هذا الكوكب ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[١] .

قال القرطبي[٢] رحمه الله : « هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة ، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ، ولا بين الأئمة ، ودليلنا قول الله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض** ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض** ﴾[٤] أي يجعل منهم خلفاء ، وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب **لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ورووا لهم الخبر في ذلك فرجعوا وأطاعوا قريشاً،** فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها » أ. هـ.

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٦٤ .

(٣) سورة ص آية ٢٦ .

(٤) سورة النور آية ٥٥ .

فجعل الإنسان خليفة لله في الأرض عدا ما فيه من تكريم له إنما كان لتحقيق الخلافة في الأرض ، وكيف تتحقق الخلافة لسلطان أو غيره ، بغير تحقيق مراده وما يأمر به ، **فالعقل والنقل على أن خلافة الإنسان في الأرض إنما كانت لإقامة شرع الله** الذي استخلف هذا الإنسان في ملكه ، فمن أقام شرع الله وحكم به كان خليفة لله في الأرض ، ومن نكل عن شرعه وعصى أمره كان خليفة لمن أطاعهم وعصى الله بهم ، فهو ومن أضله في النار .

وتحقيق الخلافة عن الله في الأرض تكون : بأن يخلص الإنسان عبوديته لله ، ويتخلص من العبودية لغيره ، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره ، وإن يُحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها ، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة . ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ، ويستخدمها في ترقية الحياة ، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها ، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة . . أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، ويصنع المادة الخامة ، ويقيم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله . . حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانيا » يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو ـ عبادة لله ، يكون قد حقق معنى الخلافة في الأرض .

يقول الفخر الرازي رحمه الله : « إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه ، وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي ، وهذا

الرأي متأكد بقولـه تعالى : ﴿ **إنـا جعلناك خليفـة في الأرض فاحكم بـين الناس بالحق** ﴾[1] .

ونقل ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير رحمهما الله في قوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ حتى يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي ، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، أما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه »[2] أ. هـ.

وعلى ذلك فإن الإنسان خليفة لله في الأرض يقيم شريعته ، وينفذ أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويعمل بما بينه رسولـه ، وذلك في نفسـه وأهله ومن كان تحت ولايته ، أو كان تحت سلطانه وأمرته .

يتحدث الشيخ عبدالرحمن حبنكـة عن موضـوع خلافـة الإنسان في الأرض فيقول : «على أن الفكرة بحد ذاتها بدعة حديثة من بدع الأفكـار، لم يقل بهـا أحد من السلف، وليس لها سند من نص شرعي ، جُلَّ ما تعتمد عليه تأويل فاسد، ثم شاعت واستهوت كثيراً من الناس، وتـلامعت ألوانها في نـظر الكثيرين من الـدعاة المخلصـين في الدعـوة إلى الإسـلام، ورأوا أنهم يستحثـون بهـا الضمـير الإنسـاني لالتزام منهج الله وتطبيق أحكامه»[3].

ومـا نقلناه عن ابن جـرير والـرازي وابن كثير يقـوى مـا ذهبنـا إليـه ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الرازي ج١ ص ١٨١ والآية من سورة ص آية ٢٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٠ .
(٣) بصائر المسلم المعاصر ص ١٣٢ .

رابعاً : الدين الشامل

يلهث كثير من المفكرين المدعين انتسابهم إلى الإسلام وراء أسيادهم من المستشرقين، ليلتقطوا منهم فتات أفكارهم ، وسمومهم وغشهم للأمة الإسلامية فيأخذون منهم هذا الفتات من الأفكار المسمومة يقدمونها للمسلمين على أنها أفكار موضوعية ، ودراسة أدبية ، وعلوم حضارية استفادوها من أساطين العلم والمعرفة في بلاد الغرب .

وهؤلاء المستشرقون لا يخفى على عاقل أنهم يتحركون بدافع الحقد الصليبي على العالم الإسلامي من جهة ، ومن جهة أخرى بدافع السيطرة على هذا العالم عن طريق تفتيته بواسطة بث الأفكار الدنيئة وبلبلة عقول المسلمين .

والمخلص من المستشرقين الذي يحرص على الموضوعية ، ويحاول أن يتجرد ولو قليلا من الهوى والغرض يقيس الإسلام عند دراسته على النصرانية فيقول بتنحية الإسلام كدين عن الحكم والسياسة ، فتخرج دراساته وقد امتلأت بالأغاليط والأكاذيب ، من حيث يشعر أو لا يشعر ، وذلك للمفارقة الكبيرة بين النصرانية والإسلام .

إن الله عندما ارتضى لنا الإسلام ديناً فقال في محكم كتابه : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] جعل هذا الإسلام دينا شاملاً كاملاً ، لم يترك أمراً أو شأناً يحتاجه المسلمون في حياتهم منذ أن بُعث نبيهم عليه الصلاة والسلام ، إلى أن يأخذ الله الأرض ومن عليها إلا بينه لهم ، وفصله لهم ، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لايضل فيها مبصر سوي .

والإنسان منذ ولادته إلى أن يموت ، وهو فرد في جماعة ، أو أسرة ، أو قبيلة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .

أو دولة لم يترك له حالة إلا ووضحها له ، وبين له الخير والصواب فيها ، وتركه على الهدى والبيان فيها ، وترك أشياء رحمة بنا غير نسيان لها وأمرنا أن لا نبحث عنها .

والفرد في المجتمع كائناً ما كانت وظيفته ودرجته ، أو عمله وعلمه ، لم يترك سدى ، بل وضح الله له كل ما يعترضه في حياته ، وأعطاه مفتاح الحلول لكل المعضلات والمشكلات ، ووضح الطريق الذي يجب أن يسلكه ، والموقف الذي يجب أن يتخذه حيال ذلك كله .

فكان الإسلام رجالاً تتمثله تمشي به في الأرض ، وكان المسلم عنواناً لهذا الإسلام ، فكان كلاهما حياة للآخر .

فالنبي صلى الله عليه وسلم عاش في مجتمع وتزوج فيه ، ورزق أطفالا وأسرة كبيرة ، وكوّن مجتمعا مسلما أخذ ينمو ويكبر حتى شكل جيشاً ودولة دانت لها دول كثيرة كانت سمع الدنيا وبصرها .

وعرف المسلم من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم الاسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة في جميع مناحي الحياة ، وذلك عكس الديانات الأخرى .

فالمسيح عليه السلام لم يتزوج ولم يعرف الأسرة ، ولم تتهيأ له الفرصة لينشىء دولة ، ولم يفتح بلادا ، ولا كوّن جيشاً ولا دخل حرباً ، ولا سنّ لكل ذلك تشريعاً ، فكانت دعوته روحية نظيفة تدعو إلى الإيمان والسمو الروحي والتسامح البشري . والارتقاء بالروح .

ولذلك لايعرف النصارى حياة المسيح مع زوجته لأنه لم يتزوج ، ولا يعرفون معاملته لأولاده لأنه لا أولاد له ، ولم يعرفوا أسس تكوين الدولة وإعداد الجيوش ، وإرسال كتائب الجهاد لأن ذلك كله لم يحدث عندهم [1] .

(١) النصرانية امتداد لليهودية في أحكامها التشريعية قال الله تعالى : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ .

ثم وجد المفكرون النصارى أنفسهم في معركة دامية مع الكنيسة ذهب الكثيرون ضحيتها .

فالكنيسة تريد أن يسود الجهل والظلام الفكري ، وتعمل لنشر الجهل والضلال حتى يتسنى لها تكثير اقطاعياتها من الأرض ، وحتى تزيد ثرواتها من المال ، فكانت تبيع صكوك الغفران تمنح بموجبها الجنة لمن يدفع أكثر .

وظلت الكنيسة جاثمة على صدور النصارى تذيقهم الويل والثبور حتى وجدوا متنفسا في الثورة عليها والتخلص منها .

ومن هذاالموقف انطلق المفكرون النصارى في عدائهم للكنيسة ، ومن فقدان الأسوة والقدوة أخذوا يشرعون من عند أنفسهم للناس ما لم ينزل به الله من سلطان .

ولكن الأمر جد مختلف عند المسلمين .

فما من مسألة إلا ولها الحل في الإسلام ، أو يقدم لها الاجتهاد حلاً .

ولم يقف الإسلام في يوم ما حجر عثرة في طريق تقدم المسلمين وازدهار حضارتهم ، بل يشهد أعداء الإسلام له بأنه الطريق الذي وصل بالحضارة إلى أوجها ، وهو السلم الذي ارتقى عليه أجدادنا إلى معارج الحضارة ، فلما كسرنا السلم هبطنا إلى أرزل العمر وأسوأ الحال .

وما قلناه عن النصرانية نقوله في اليهودية ، ونقوله في البوذية ، والهندوكية ، والزرادشتية ، وجميع المبادىء الأخرى ، فهي لا تصلح أن تكون للإنسان حياة وللبشرية منهاجاً وتشريعاً .

إن جوهر الإسلام يختلف عن جميع الديانات ، إنه الدين الكامل الذي أمتحن الله البشرية به ، والله لا يظلم أحدا ، فبين الإسلام ووضح معالمه ، وفصل

أحكامه ، ثم سأل الناس أن يلتزموه وهو واضح معلوم ، حتى لا تكون لهم حجة على الله .

فالإسلام فيه التشريعات الأساسية للحياة كلها من أدنى أمورها إلى أعظم شئونها .

ولذا أوجب الله الحكم به ، وحرّم العدول عنه ، وصار واجباً على المسلمين **العمل لإحياء مبادئه ، وسن تشريعاته ، وإقامة أحكامه .**

خامساً : رد التنازع إلى الشريعة

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين برد التنازع والخلاف إلى الشريعة الإسلامية ، ليصار الحكم وفق تعاليمها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[1] **وقد جعل الله سبحانه من الظواهر السلوكية للإيمان الصحيح رد التنازع إلى الله والرسول بقوله في الآية السابقة : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾** .

قال ابن كثير رحمه الله : « فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال » وقال : « أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولايرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله[2] ولا باليوم الآخر لقوله تعالى : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾»[3] .

وقد ذهب القرطبي في تفسيره عند هذه الآية إلى القول بوجوب رد الحكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ويكون ذلك بالسؤال في حياته ، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ، ومن لم ير هذا اختل إيمانه »[4] .

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

❋(٢) **النص لا يدل على هذه الدلالة لأن مثل هـذا الاستعمال لا يفيـد ذلك وقـد كثر في القـرآن دون أن يحمل هذه الدلالة مثل : [الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تـأخذكم بهـما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر].**
بل يدل على أن الإيمان يدفع إلى هذا التطبيق فالقرآن يستحث على التطبيق بدافع الإيمان ولا يجعل التطبيق شرطاً لصحة الإيمان .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥١٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٥ ص ٢٦١ .

أما الفخر الرازي فقد قال : « بنص الآية على اعتبار القياس حجة لقوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء** ﴾ فذهب إلى أن التنازع لا يكون أصلا إلا فيما لم يرد فيه نص ، لأن ما ورد فيه النص فإن حكمه الطاعة لله ورسوله لقوله تعالى في أول الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[1] وجعل الرازي رحمه الله الرد في القياس إلى واقعة بيّن الله حكمها ، ولابد وأن يكون **المراد فردوها إلى واقعة تشبهها ، وأن من لم يعمل ذلك لا يكون مطيعاً لله وللرسول ، ومن لم يطع الله والرسول لا يكون مؤمناً** »[2] [3].

والمفهوم من كلام الرازي أن التنازع والخلاف في أي مسألة كانت لابد من رده إلى أصل شرعي حتى لايكون الحكم للهوى والطغيان ، ذلك أن الله ما أرسل الرسل عليهم السلام إلا ليطاعوا في تشريعهم لقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾[4] ، فالناس لايؤمنون حتى يحكموا منهج الله ممثلا في كتابه الكريم وفي سنة نبيه عليه السلام ، وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي ، وما جدَّ من مسائل فإنما يُحكم بهما بالرد إلى هذين الأصلين بالقياس على واقعة حكم فيها شبيهة للواقعة الجديدة وبإجماع أهل العلم على صدق هذا الحكم فيها وأنه مطابق لمراد الشريعة الإسلامية .

فإن المشكلات والقضايا التي يتعرض لها المجتمع الإسلامي ولم يرد فيها نص صريح ، وكانت مما تختلف في تقديره العقول والأراء والافهام ، فإن الله أمرنا برد هذه القضايا والمشكلات الى الله والى الرسول وذلك بردها الى النصوص التي

(١) سورة النساء آية ٥٩ .
(٢) تفسير الرازي ج ٥ ص ١٥٦ .
* (٣) **كلام الرازي هذا غير مسلم به ، إلاّ إذا كان مراده أن من لم يطع قد رفض الطاعة لا أنه أسلم وعصى .**
(٤) سورة النساء آية ٦٤ .

تنطبق عليها ضمناً، فإن لم توجد النصوص فإنما يكون الرد الى المباديء الكلية العامة في الشريعة الإسلامية ، ويكون الرد الى القضايا المشابهة والتي سبق أن حكم الله فيها ورسوله، أما الرد الى المناهج الارضية والمباديء البشرية فهذا مما لا يجيزه الله ولا يقبله من بشر أبداً.

وقد نفى الله الإيمان عن الذين لا يتحاكمون إلى الله وإلى رسوله فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[1] ،

والمشاجرة هي المنازعة، وذلك لتداخل كلام الخصوم بعضهم في بعض عند المنازعة، فالحكم في قضايا المنازعة والمخاصمة يجب ان يستقيم مع شريعة الله سبحانه وتعالى، لا على القوانين الوضعية التي يحكم بها في محاكمنا اليوم، والآية صريحة في ذلك

قال الرازي رحمه الله : « في الآية قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط :

أولها : قوله ﴿ **حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ وهذا يدل على ان من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمناً .

ثانيها : قوله : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾ قال الزجاج : لا تضيق صدورهم من أقضيتك (أي حكم الرسول) وأنه لابد من حصول الرضا بالحكم في القلب، وان يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق والصدق

ثالثها : قوله تعالى : ﴿ **ويسلموا تسليما** ﴾ فبين تعالى أنه كما لابد في الإيمان

(١) سورة النساء آية ٦٥ .

من حصول ذلك اليقين في القلب، فلابد أيضاً من التسليم معه في الظاهر، فقوله : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾ المراد به الانقياد في الباطن، وقوله تعالى : ﴿ **ويسلموا تسليما** ﴾ المراد منه الانقياد في الظاهر »[1] أ. هـ .

والآية نزلت في الزبير بن العوام رضي الله عنه عندما أختلف مع صحابي من الأنصار حول سقي بستان فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير : « اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء الى أرض جارك » فغضب الأنصاري فقال : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ؟ (أي أتحابيه لقرابته منك)، فتلون وجه[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للزبير : « يازبير أسق .. ثم أحبس الماء حتى يبلغ الجدر » فرد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الى مُر الحكم بالحق، لأن من كانت أرضه أقرب الى فم الوادي فهو أولى بأول الماء، وحقه تمام السقي، فالآية إنما نزلت لوقوع المخاصمة بين الصحابة، فرد الله الحكم الى رسوله، ورد المسلمين الى التسليم لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً.

فالآية نص صريح برد جميع الخصومات والمشاجرات بين المسلمين الى قوانين الله وشرعه، ورد كل القوانين التي تخالفه .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا يرجعون في منازعاتهم ومشاكلهم الى الله والى رسوله والى شرعه بأنهم :

١ ــ غير صادقين في إيمانهم، بل الكذب واضح فاضح لهم : ﴿ **ألم تَرَ الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل اليك، وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا ان يكفروا به** ﴾[3] فقال في وصف إيمانهم ﴿ **الذين يزعمون** ﴾ والزعم كما قال علماء العربية يستعمل في القول

(١) تفسير الرازي ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم غضبا لحرمة النبوة وقبح كلام هذا الصحابي .

(٣) سورة النساء آية ٦٠ .

الكذب والذي يُشك في صحته، والذي لا يتحقق .

٢ ـ وصفهم بأنهم يريدون ﴿ **ان يتحاكموا الى الطاغوت** ﴾ والطاغوت كما عرفنا هو صيغة من الطغيان وتجاوز الحد، وأنه على الراجح شيطان، أو حاكم بغير ما أنزل الله، والصفة الشاملة للطاغوت عدا مجاوزته الحد أنه ينازع الله سلطانه في خلقه، فطغى حده، وزاد عن أمره، والذين يلجأون الى الطاغوت أولئك أكفر الخلق وذلك لقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[1] .

٣ ـ وصفهم الله بأنهم من الضالين الذين أضلتهم الشياطين، ومن الضالعين في الضلال البعيد العظيم، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يُضلهم ضلالاً بعيد** ﴾[2] والضال كما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه من أصحاب الجحيم .

٤ ـ وصفهم الله سبحانه وتعالى بالنفاق فقال : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا** ﴾[3] فالذين يرفضون التحاكم الى قوانين الشريعة الإسلامية، ويرفضون الانصياع لحدود الله وأحكامه فهم من المنافقين[4] الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن المنافقين في**

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٢) سورة النساء آية ٦٠ .

(٣) سورة النساء آية ٦١ .

*(٤) **هذا إذا كانوا في الظاهر معلنين إسلامهم ويريدون مع ذلك رفض الانصياع إلى حكم الله وإيثار حكم الطاغوت فالآية تتحدث عن واقعة ولا تعطي قراراً عامًّا .**

الدرك الأسفل من النار ﴾[1] وقد دللنا بالآية على نفاقهم، ودللنا بالآية على دخولهم درك النار وأسفلها .

لقد كان القتل جزاء لمن رفض حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك جاء في سبب نزول هذه الآية كما قال كثير من المفسرين : « أنه نازع رجل من المنافقين رجلاً من اليهود فقال اليهودي : بيني وبينك أبو القاسم، وقال المنافق بيني وبينك كعب بن الأشرف، والسبب في ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقضي بالحق ولا يلتفت الى الرشوة، وكعب بن الأشرف كان شديد الرغبة في الرشوة، واليهودي كان محقاً، والمنافق كان مبطلاً، فلهذا المعنى كان اليهودي يريد التحاكم الى الرسول، والمنافق كان يريد كعب بن الأشرف، ثم أصر اليهودي على قوله، فذهبا إليه صلى الله عليه وسلم، فحكم الرسول عليه الصلاة والسلام لليهودي على المنافق، فقال المنافق لا أرضى انطلق بنا إلى أبي بكر، فحكم أبو بكر رضي الله عنه لليهودي فلم يرض المنافق، وقال المنافق : بيني وبينك عمر، فصارا إلى عمر فأخبره اليهودي أن الرسول عليه الصلاة والسلام وأبا بكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما فقال للمنافق : أهكذا فقال نعم، قال اصبرا إن لي حاجة أدخل فأقضيها وأخرج إليكما فدخل فأخذ سيفه ثم خرج إليهما فضرب به المنافق حتى برد[2] وهرب اليهودي، فجاء أهل المنافق فشكوا عمر الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عمر عن قصته، فقال عمر : إنه رد حكمك يا رسول الله . فجاء جبريل عليه السلام في الحال وقال : إنه الفاروق فرق بين الحق والباطل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « أنت الفاروق » .

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥ .

(٢) حتى برد : أي مات .

لقد قضى عمر الفاروق بقتل من رد حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه حكم النبي المعصوم عن الخطأ، والمأمور بطاعته من الله .

فكيف بالمسلمين اليوم قد هجروا شرع ربهم واستبدلوه بالقوانين الوضعية المستوردة من فرنسا ومن إنكلترا، ومن هنا أو هناك .

كيف بالمسلمين اليوم وقد عصوا الله ورسوله، ورفضوا أحكامه وقوانينه، وقد تجرأ كثير منهم على اتهامها بالقصور وعدم الصلاحية .

﴿ ويريد الشيطان أن يُضلَّهم ضلالاً بعيدا ﴾ [(١)] .

(١) سورة النساء آية ٦٠ .

سادساً : توقّي عقوبة الله المعجلة بإيقاع البأس بين أحزاب الأمة .

إن الحكم بغير ما أنزل الله يوجب استنزال غضبه ومقته على الخلق .

يقول ابن تيمية مبيناً الآثار المترتبة على تحكيم القوانين الوضعية : « اذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله وقع بأسهم بينهم » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم » وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا ، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره ، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه ، فإن الله يقول في كتابه : ﴿ **وَلَيَنصُرُنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[١] فقد وعد الله بنصر من ينصره ، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله ، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلم بما لا يعلم »[٢] .

والواقع يشهد بأن الحكام الذين اجترأوا على الله فغيروا شرعه، وحكموا الخلق بغير هدى الله، حلت عليهم المصائب وتوالت بهم الهزائم، **وقلّ خير الأرض في بلادهم ، وارتفعت الأسعار ، وشاعت الفاحشة ، وانتشرت الرزيلة ، وعمت البلوى ، وألقيت بينهم العداوة والبغضاء ، وكان بأسهمْ بينهم شديداً .**

كل ذلك جزاء حكمهم بغير ما أنزل الله، فالعودة الى الشريعة الربانية يجنب البلاد والعباد غضب الله سبحانه وتعالى، وينشر الخير، ويمنع البلاء .

---

(١) سورة الحج آية ٤٠ .

(٢) الفتاوي لابن تيمية : ٣٥ / ٣٨٨ نقلا عن الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية .

سابعاً : الله أعلم وأحكم

لو سألتهم من خلق الإنسان ؟ سيقولون الله !
ولو سألتهم هل يعلم الله طبيعة هذا الإنسان وتركيبته ؟ سيقولون نعم .
أيعلم الله ما توسوس به نفس هذا الإنسان ؟
أيعلم الله ما هو الخير لهذا الإنسان ؟
سيقولون نعم !

إنهم يقرّون بخلق الله للإنسان وقدرته سبحانه وتعالى، ولا ينكرون علمه بهذا الإنسان وما يحيط به من كائنات، ويدركون أن الله يعلم ما في نفس هذا الإنسان ،وما يدور حوله، ويعلم سبحانه كذلك أين خير هذا الإنسان، وأين نفعه وسعادته[1].

ولكن المعاندين والمكابرين يرفضون أن يسير هذا الإنسان على شرع الله، وعلى نهجه الذي ارتضاه لخلقه .

إن الله خالق كل شيء، والإنسان من خلقه سبحانه وتعالى، والله عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه شيء في الارض ولا في السماء، قال الله تعالى : ﴿ **وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الارض ولا في السماء** ﴾[2] فهو سبحانه خالق الاشياء كلها بما فيها الإنسان ، وهو بالتالي أعلم بما يصلح لهذا الإنسان ، وأعلم بالتشريع الذي يضمن له السعادة في الدنيا والآخرة .

إن الله كلّف الإنسان أن يستقيم على شرعه ، وأن يلتزم بدينه حتى

---

(١) سورة يونس آية ١٠ .

*(٢) إن الذين يرفضون الحكم بما أنزل الله من المعاصرين معظمهم ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولو نافقوا بألسنتهم .

ينال سعادة الدنيا والآخرة، ولكن البشر الذين يشرعون للناس يزعمون كذباً أنهم يريدون لهم السعادة، وعلى فرض صدق ما يقولون، فإن السعادة التي يريدون **تحقيقها لا تتعدى الحياة الدنيا ، أما الله سبحانه فإنه يحب لعباده سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة فيما ارتضى لهم من حكم واصطفى لهم من دين.**

إن أرباب الجاهلية الحديثة شأنهم في دعاويهم الباطلة كأصحابهم من أرباب الجاهلية القديمة .

إن طواغيت قريش كانوا يقرون لله بالربوبية والخلق : ﴿ **لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾[1] فكانوا يقرون لله بالخلق والربوبية ، فإذا طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم توحيد الله في العبادة والقربى أخذتهم العزة بتقليد الآباء ، وتكريم الأصنام فقالوا : إنما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى .

وهكذا في عصرنا الحاضر يقرون لله بالخلق والإيجاد ، ويقرون له بعلم ما **خفى وما ظهر، ولكنهم ينكرون أن يكون أعلم بما يصلح للإنسان من تشريع ، وبما يحقق له السعادتين الدنيوية والأبدية ، فكأن عيونهم وقلوبهم قد عميت عن إبصار الحقيقة الواضحة ، فجعلوا المخلوق المحدود التفكير والتجربة أعلم بما يصلح لشئون البشر من ربهم وخالقهم وعالم حالهم.**

*** هذه الفكرة لا يصرح بها المنافقون ولكن يتحايلون بدعاوي : أن الدين الحق لا يلزم بأحكام معينة فقهية وإنما يبتغي المصلحة لهم . ونحو ذلك من دعاوي.**

---

(١) سورة الزخرف آية ٩ .

ثم هل يكون لله غرض عند أحد من البشر يحرص سبحانه وتعالى أن يحققه بتشريعه ،

إنه رب كل البشر ، وبالتالي فلا غرض له عند مخلوق ، وهو سبحانه المستغني عن كل المخلوقات ، والمخلوقات كلها مفتقرة إليه .

فتشريع الله يخلو من الهوى ، ويخلو من المصلحة ، ويخلو من الغرض ، إنه **تشريع رباني ، لا قانون يدفع إلى اتباعه الهوى والغرض الشخصي والمصلحة الخاصة.**

« لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، وتفلسف الناس وتعلموا ، ودرسوا في العلوم السياسية ما درسوا ، فإذا الخلاصة التي انتهوا إليها من هذا العلم كله : أن كل تشريع أرضي هو تعبير عن « الطبقة » التي تملك وتحكم ، وأنه يمثل مصالحها هي على حساب بقية الطبقات . فالإقطاع مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الإقطاعيين ولحماية مصالحهم على حساب بقية « الشعب » . ورأس المال مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الرأسماليين ولحماية مصالحهم على حساب العمال . ودكتاتورية البروليتاريا مرة تحكم ، فتشرع لحساب طبقة العمال (نظرياً على الأقل) على حساب بقية الآدميين . . ولم يحدث غير ذلك في التاريخ .

وهذا هو الذي قرره الله في كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله « هوى » يميل مع أصحابه حيث يميلون .

ثم . . لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية في أقطار الأرض تجارب شتى ، فإذا هذه التجارب ذاتها تثبت أن كل ما انحرف به الناس عن شريعة الله قد سبب لهم شقوة مريرة لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم

وراحتهم ، ومزقهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، فضلا عن الشقاء العالمي الشامل الذي أنتج في التاريخ المعاصر حربين متتاليتين في ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ . وفضلا عن تفتت الأسرة وتحلل الأخلاق وتمزق أعصاب الفرد بين شتى الإتجاهات ، مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التي شهدت منها البشرية في هذا الجيل ما لم تشهده في أجيال »[1] .

(١) هل نحن مسلمون لمحمد قطب ص ٣١ .

ثامناً : الانقياد الجبري والانقياد الاختياري

الانقياد الجبري لله في الكائنات يقتضي انقياد الناس لدينه ، انقياداً اختيارياً حتى يتم التناسق بين الخلائق في الكون كله ، فكائنات الله في السماء من شمس وقمر وما أودعه الله في قوى العالم السماوي تسير على سنن الله المحكمة ذلك لأنها مطيعة بالجبر لأمر الله ومسخرات لمخلوقات الله المخيرة، قال الله تعالى : ﴿ والشمس والقمر مسخرات بأمره ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾[2].

وكذلك الأرض وما عليها تسير على سنن الله المحكمة ، قال الله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاً** ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[4]

وكذلك الإنسان ـ باستثناء أعماله الاختيارية ـ يخضع لله خضوعاً جبرياً في جهازه العصبي وأفعاله الاضطرارية بالقيام بوظائفه العضوية قياماً ينطق بالعبودية لله .

فلا العالم العلوي من ملائكة وأجرام وكواكب ومالا يعلمه إلا الله يخرج عن سنة الله في إرادته الكونية .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٣ .

(٣) سورة طه آية ٥٣ .

(٤) سورة الملك آية ٦٧ .

ولا العالم الأرضي بما فيه من إنسان وحيـوان ومخلوقات مما لا يعلمها إلا الله يخرج عن سنة الله في إرادته الكونية كذلك .

فكل المخلوقات تسير وفق السنن الربانية في هـذا الكون ﴿ **لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾[1] .

وَلَكن الإنسـان وفي الجانب الإرادي منـه رغم أنـه يخضـع لقـدر الله ـ فهـو وحـده كلّفه الله بـالتخيير لـلامتحان من الخـروج عن طاعـة الله ، ورفض شرعـه واستبداله بغيره ، والرضى بالعبودية والذل لغـير الله سبحانـه : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبـونهم كحب الله** ﴾[2]. وإقامـة الشريعة الإسـلامية ، وتحكيم الشرع الكريم ، ورد حق التشريع في الحكم والسياسة وجميع شئون الحياة إلى الله ، إنمـا يهدف إلى رد النـاس عن التمـرد الكفـري وردهم إلى الله وحـده ، بحيث يُخضعون جميع شئون حياتهم كلها ، اعتقاداً وسلوكا لشرع الله عز وجـل ، وبذلك يحققون توحيده سبحانه وإفراده في ربوبيته ، وأُلوهيته ، ويتحقق معنى « لا إلـه إلا الله » ، إذ لا حـاكم سـواه ، ولا يشرع للخلق فيحـل لهم أو يحـرم عليهم سواه ، ويتحقق كذلك معنى شهادة « أن محمداً رسول الله » فـلا يؤخذ شرعـه عن غيره ، ولا يطاع في التحليل والتحريم والتشريع سواه ، وبـذلك يتحقق انتسـاب المرء إلى الإسلام ، ودينونته له وانقياده لتشريعه .

فالإنسان عبد لله يخضع قسراً للقوانين الطبيعية التي أودعها الله في الكون ، وأقام عليها النظام الكوني ، ويتوجب عليه أن يتم عبوديته لله بالخضوع له طوعاً في قوانينه التي شرعها للخلق ، وأنزلها على رسوله لتكون نوراً للناس وهداية لهم .

---

(١) سورة يس آية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥ .

تاسعاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لم تكن صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر **لأمة من** الأمم السابقة كما **هي لأمة المسلمين** ، فقد ذكر القرآن عن بني إسرائيل أنهم : **﴿ كانوا لا يَتَناهَون عن منكر فعلوه ﴾**[1] **وبينت السنة أن بني اسرائيل تهاونوا في النهي عن المنكر ،** فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل **أنه كان** الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : **﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ﴾** إلى قوله **﴿ فاسقون ﴾** ثم قال : « كلا والله لَتَأمُرُنَّ بالمعروف **وَلَتَنْهَونَّ** عن المنكر ولتَأخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرُنَّهُ على الحق أطراً وَلَتَقْصُرُنَّهُ على الحق قصراً أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليَلعَنكم كما لعنهم » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن . هذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وَوَاكَلُوهُمْ وَشارَبُوهُمْ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئا فقال : لا والذي نفسي بيده

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٨ .

حتى تَـأطِـرُوهُم عـلى الحق أطـراً » . قـولـه « تـأطـروهم » . أي تعـطفـوهم « ولْتَقْصرُونَهُ » : أي لتحبسنه .

وقد كان بنـو اسرائيل من أعـظم الأمم قبلنا لكنهم لم يقـوموا فعـلاً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمجاهدة في ذلك ، بل عامة جهـادهم إنما كـان لدفع عدوهم عن أرضهم ، ولذلك كانوا مآل مذمة وذلة .

أما امة الإسـلام فإنها من خـير الأمم للناس ، لمحبتهـا الخير لكـل الناس ، ولإحسـانها إليهم ، ولجهادهـا بالمـال والنفس لـدفـع المنكـر عن النـاس ، وتحقيق المعروف فيهم ، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنـه : « كنتم خيرالنـاس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تُـدخلوهم الجنـة » .

وقد جعل الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً عـلى جميع أفـراد الأمة ، يؤدونه كل حسب طاقته ومكانه ، فمن استطاع تغيـير المنكر بيـده فعليه أن يغيره بيده ، ومن استطاع أن يغيره بلسانه فليغيره بلسانـه ، ومن عجز عن التغيـير باليد أو اللسان فلا أقـل من نكران القلب ، ومفـاصلة الشعور ، لأن قلب المؤمن طهور نظيف لا بد أن يأبى المنكر ويزدريه ويكرهه ، فعن أبي سعيد الخـدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكرا فليغـيره بيده ، فـإن لم يستـطع فبلسـانـه ، فـإن لم يستـطع فبقلبـه وذلـك أضعف الإيمان »[1] فجعل نكـران المنكر بـالقلب من الإيمان ، ولكنـه أضعفه ، وقـد نفى **الإيمان عمن لا يحاول تغيير المنكر بواحد من الحالات الثلاث التي مرت آنفاً .**

فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي

---

(١) رواه مسلم .

بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنهاتخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1]

ولكن كيف يتحقق للمسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لم تكن شريعة الله قائمة تحكم في الأرض ، فتغيير المنكر باليد إنما يكون من قبل الولاة والأمراء والحكام وكل الذين يقدرون على استخدام القوة في إزالة المنكر ، وأما التغيير باللسان فمن أهل العلم والفضل والنهى ، والتغيير بالقلب إنما يكون من عامة الناس ، وضعاف الخلق .

وقديما قال الخليفة الراشد عثمان بن عفان : « إن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن » وذلك لأن السلطان يستطيع بما يملك من قوة مادية ، وتأثير معنوي أن يغير المنكر ويزيله ويقضي عليه في مهده .

والتاريخ يشهد لما نقول ، فها هو الخليفة عمر بن عبدالعزيز استطاع أن يعيد حياة الخلافة الراشدة في عهده ، وقضى على الملك العضوض ، وعاد بالناس إلى الصلاح والفلاح ، لما كان في نفسه من إرادة ومحبة العودة إلى النهج الراشد في الحكم والتشريع .

ولسنا نغمض عيناً عن تركيا المسلمة التي عاشت تجربة الخلافة الإسلامية لفترة طويلة من الزمن ، ثم جاء مصطفى كمال أتاتورك فحملها بالسلطة والقوة على العلمنة والكفر ، واستطاع أن يربطها بعجلة الغرب الأوروبي ، وأن يفصمها عن أمها الحنون الأمة الإسلامية .

---

(١) رواه مسلم .

وكلنا شاهد على ما يجري في عالمنا من إصدار قرارات بمنع الحجاب الإسلامي ، ومصادرة الكتب الدينية ، ومحاولة قتل الفضيلة في نفوس الجيل ، ونشر الرذيلة والفساد ، وقد نجحت هذه الدعوات ، ووجدت لها تجاوبا من بعض الناس لكونها صادرة عن السلطة الحاكمة ، ولم يجد جهاد الأمة نفعا في كثير من أقطار المسلمين لوقف هذه الدعاوي الباطلة بسبب قوة السلطة ووقوفها بسطوة الحكم إلى جانب ما تدعو إليه من باطل وراجت سوقها لسببين :

الأول : لأنها صادرة من سلطة عليا .

والثاني : لأن النفوس المريضة طبعت على الفساد والمرض والهوى ، فوافق ما أرادت السلطة ما تهواه هذه النفوس .

إن للسلطة دوراً فعالاً في حرب الرذيلة أو نشرها ، وفي إعلاء المعروف والحق أو تدميره وقهره ، ومن يكابر عما نقول فإن الواقع يشهد لنا ضده ، ولهذا كان لابد من إقامة الحكومة الإسلامية ، وتحكيم الشريعة الغراء حتى يتحقق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عالم الواقع المشهود .

آثار الحكم بغير ما أنزل الله

لهذا الحكم آثاره السيئة في حياة الفرد والجماعة وفساد الحياة كلها .

أولا : له آثاره في حياة الفرد بفراغ النفس وانحراف السلوك ، فإن النفس البشرية إذا لم تكن عامرة بالإيمان بالله وحده ، خاضعة لشريعته مزقتها الأهواء والشهوات ، وأورثتها الاضطراب والخلل والحيرة والفراغ ، فالعبد المؤمن يدين لإله واحد يطيع أمره ويخضع لسلطانه، فهو يعرف طريقاً واحداً يسلكه ولا تنازعه قوة أخرى تشده إليها كالعبد الذي يملكه سيد واحد ، يتلقى منه أوامره فيمتثلها ، ويعمل ما يرضي سيده فهو مستقر النفس مستريح البال ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا**) . إنهما لا يستويان .

وخواء النفس من الدين ، في فراغها من الانصياع لشريعة الله يبعث فيها الضجر والملل فتنفسْ عن ضيقها بالانحرافات السلوكية والشذوذ في المجتمع وتلك حقيقة يسجلها واقع العالم الحديث ، فهذه الدول الراقية قد استطاعت أن تحقق للإنسان متعة المادة ، ولكنها جعلته فارغ الروح ، يطارده هذا الفراغ فيهرب من الحياة الناعمة التي يعيشها ، بل يهرب من نفسه التي بين جنبيه ، فيلجأ إلى التخلص من ذلك الشقاء بالانتحار الذي يفقده الحياة إلى الأبد أو بإدمان المخدرات والخمور حتى ينسى الحياة وينسى نفسه بالسكر فترة من الزمن ، وتدل احصائيات هذه الدول على أن الأمراض العصبية وحوادث الانتحار ونسبة الجريمةوالشذوذ ترتفع من سنة إلى أخرى وتزداد من سنة إلى أخرى وتزداد من عام إلى آخر ، وحين يفقد أحدهم وسيلة الهرب من الحياة يلجأ إلى الشذوذ والخروج عن مظاهر المجتمع ، وليست ظاهرة (الهيبز ، والخنافس) سوى التعبير عن هذه الحقيقة .

ثانيا : وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في حياة الأمة ، لأن الأمة التي

تعيش بلا ضمير ديني لا يحول القانون الوضعي بينها وبين ارتكاب الجريمة والفساد في الأرض .

تقدمت الدراسات النفسية والاجتماعية والقانون لتحد من تفاقم الشر وانتشار الجريمة ولكنها باءت بالفشل ، ففي طبيعة البشر أن يتمرد على البشر ، إنه يشعر إزاء سائر الناس أنه إنسان وأنهم أناس وهذا الاشتراك في البشرية يقتضي أن الجميع سواء في الحقوق كلها ، فعلام يدين بالولاء والطاعة لقانون من وضع البشر ؟

أيدين له فرارا من جزاء مخالفة بحرمان دنيوي ؟ أو عقوبة دنيوية ؟ فالخطب يسير ففي استطاعته أن ينقض عرى هذا القانون عروة عروة ويهدم بناءه في غفلة من حراسة القانون ورجال الأمن ولايمتلك القانون عقوبة في الدار الآخرة .

أما التشريع الإسلامي فيستمد سلطته من الله الذي خلق الخلق : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور** ﴾ وطاعة التشريع السماوي لايكفي في تحقيقها السلوك الظاهري في مرأى من الناس ، بل لابد فيها من خشوع القلب ، فالإفلات من عقوبة الدنيا بالتستر والمخاتلة لا يغني فتيلا عن عقوبة الآخرة ، وبهذا يتربى الضمير المؤمن الحي الذي يسهر على رعاية حرمات الله ، فإن القضاء لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « يا أيها الناس إنما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] والأمة التي تحيد عن شريعة الله بعد أن كرمها الله بها تستحق عقاب الله ، وإذا كان الله قد أكرم هذه الأمة فلم يعاقبها عقوبة إبادة كما عاقب الأمم المكذبة السابقة ، **فإنه يعاقبها** بكوارث الحياة ، فيتخلى

---

(١) رواه مسلم .

عن نصره لها، ويذيقها بأس عدوها ، فتطحنها نكبات الهزيمة ، وتسام الذل والهوان ، ويومئذ لا تنفعها المعذرة حتى تفيء إلى شرع الله ، يقول الله تعالى في تهديد من يخرج عن شريعة الله : **﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون ﴾**[1]

ولقد استبدلت كثير من دول الإسلام بشريعة الله قوانين البشر ومذاهبهم ورفعت شعارات براقة وأوهمت شعوبها بأن هذا هو السبيل لرخائها وعزها فماذا كانت النهاية ؟ كانت عار الهزيمة ، وذل الخيانة ، ومأساة التضليل وانهيار الاقتصاد ، وفساد المجتمع وضياع الفضيلة وإهدار القيم وتلك هي سنة الله في أمة أنزل الله في كتابه لها قوله : **﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾**[2] .

ثالثا : وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في فساد الحياة كلها . لقد استخلف الله الإنسان على الأرض ليعمرها بهداية السماء ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعا منه ، ووفقه إلى الاستفادة من طاقات الكائنات وما أودعه الله فيها من قوى ، واستطاع الإنسان في العصر الحديث أن يبتكر ويبدع ، وحسن استخدام هذه الطاقات هو الذي يحقق الرخاء والأمن للبشرية ، وسبيل ذلك هو الوقوف في استخدامها عند شرع الله بالحكمة والعدل ، وهذا يعني أن تكون تلك القوى بيد مؤمنة مهتدية ، وإلا كانت وسائل هدم وخراب ودمار وفساد .

هذه الحقيقة يدركها الناس اليوم ، وهم يشاهدون التقدم العلمي الباهر في الاستفادة من طاقات الأرض والماء والهواء ، وقد تحول إلى صراع دولي مدمر ،

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .

(٢) سورة الأنفال آية ٥٣ .

يوشك أن يأتي على بنيان الحضارة الإنسانية من القواعد ، ويحيل الحياة إلى جحيم لايطاق ، ولو اشتعلت حرب ذرية لأصبح الهواء سموما قاتلة ، والعمران براكين والجو نارا متقدة . فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تحمله المذاهب والقوانين البشرية من تدمير للأخلاق أدركنا كيف يكون فساد السموات والأرض على يد الإنسان المتمرد على شريعة الله الذي يجعل الحق تبعا لهواه . .

إن الحق ناموس الله للوجود كله ، وهو ثابت لايتغير ولا تتخلف سنته ، وأهواء الناس متعارضة ولو ساير الحق أهواءهم لفسدت أوضاع الحياة كلها ، تفسد حياة المكلفين بفساد أهوائهم وأعمالهم وتفسد سائر الكائنات لأنهم قائمون عليها بالتدبير تسخيرا من الله . والأمة التي أشرقت فيها رسالة الإسلام هي أولى الأمم لاتباع هذه الرسالة لما في ذلك من مجد وشرف ، وقد ظلت الأمة العربية لا ذكر لها في التاريخ حتى جاء الإسلام فارتفع شأنها ، وذاع صيتها ، وظل هذا الذكر يدوي في أذن الدنيا ما استمسكت به ، وتضاءل بقدر تخليها عنه ، ولن يعود لها ذكر مرة أخرى إلا به .

فهل من مجيب ؟

الفصل الخامس



الطاغوت الثاني
الشـــيطان

يـطلق لفظ الشيطان من الإنس والجن والـدواب على كـل عاتٍ متمـرد ، والعرب تسمي الحية شيطاناً لتمردها وسرعة حركتها وخطورتها ، وقد وصف الله شجرة الزقوم بأن طلعها كأنه رؤوس الشياطين زيادة في التنفير منها ، ولتصوير قبحها قال الله تعالى :﴿ **طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾[1]

قال الفراء : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه شبَّه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح .

الثاني : أن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً ، وهو ذو عرف قبيح .

الثالث : **قيل إنه نبت قبيح يسمى رؤوس الشياطين** .

فالشياطين هم المتمردون من عالم الجن .

وإبليس هو أبو الشياطين وأصلهم الأول ، وقيل إنه كان من الملائكة .

روى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان إبليس من الملائكة ، فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطاناً »

فالشيطان رأس الطواغيت ، والمقدم فيهم ، والسيد المطاع عندهم وهو رأس

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥ .

كل فتنة ، ومدبر كل مكيدة للإنسان ليصرفه عن عبوديته لله ، وقد بدأت عداوته للبشر منذ القدم ، عندما أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، قال الله تعالى : **﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾**[1]

والآية تدل على أن إبليس كان مع الملائكة لأن الله لم يأمره منفردا وبخطاب جديد ، بل خاطبه مع عموم الملائكة ، وهي تدل كذلك على أن إبليس إنما كانت معصيته لله كبراً وإباء وتفاخراً على آدم عليه السلام عندما قال : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾[2] وقوله : ﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾[3] وقوله : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾[4] .

وهذه الصفات الخبيثة تتمثل في كل طاغوت ، فتراه يرد شرع الله ، ويتكبر **على سنة رسوله ، ويتبختر ويتكبر بكرسي الحكم ومنصب الرئاسة ، ويتفاخر على** الدعاة والمصلحين ويغمطهم حقهم ويزدريهم ويوقع العداوة والبغضاء بينهم ، لما في نفسه من شرور وعتو وتمرد وإثم ، ولما في دخيلة نفسه من حسد وحقد لما أعطاهم الله من كرامته وحبه وهدايته .

والعداوة قائمة وقديمة بين هذا الطاغوت وبين الإنسان وهو الذي أوقع أول بشر بالمعصية ، **﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾**[5] فانعقدت العداوة بيننا وبين الشيطان منذ ذلك التاريخ ، ودخل إبليس على الإنسان بالتدليس والكذب والافتراء منذ ذلك الوقت ، **﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾**[6] فقد أقسم بالله إنه

(١) سورة البقرة آية ٣٤ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٢ .
(٣) سورة الاسراء آية ٦١ .
(٤) سورة الحجر آية ٣٣ .
(٥) سورة البقرة آية ٣٦ .
(٦) سورة الأعراف آية ٢١ .

ناصح لآدم وحواء ، فلماوثقا به وبقسمه استزلهما إلى المعصية وأوقعهما فيها .

وأبان إبليس مخططه الذي أعده لإغواء الإنسان ، ومنه أن يحتنك ذرية آدم إلا قليلاً فقال لربه : **﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾**[1]، وتوعد إبليسُ بأن يقعد للإنسان في صراط الله المستقيم فقال : **﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾**[2] فهو يعرف أن صراط الله مستقيم ، وأن من سلكه نجا ومن حاد عنه هلك ، ولذا فإنه يصدُّ عنه من أراد سلوكه ليهلكه بالغواية والمعصية ، وهكذا الطاغوت بجميع أشكاله وأجناسه يعلم يقيناً أنه على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، ولكنه يصد عن الطريق القويم ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، يريدها عوجاً ، ويريدها كفراً وضلالاً .

والشيطان يفرح إذا تمكن من إفساد المؤمن ، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا ، فيقول ما صنعت شيئا ، قال ثم يجيء أحدهم فيقول ماتركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه أو قال : فيلتزمه ويقول : نعم أنت »[3] .

والشياطين تتجه دائما إلى التمرد على الله ، وإلى تفريق وتمزيق عباده ، وقطع الصلة بينهم وبين الحق ، وما من شر في الأرض ، ولا فساد في الوجود إلا ولهم اليد الطولى فيه ، وهم الذين قعدوا للأمم السابقة فصدوها عن التوحيد ، وزينوا لها الكفر والفسوق والعصيان ، قال الله تعالى : **﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك**

---

(١) سورة الاسراء آية ٦٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٦

(٣) رواه مسلم .

فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴾[1] .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لاأزال أغفر لهم ما استغفروني»[2] .

---

(١) سورة النحل آية ٦٣ .

(٢) حديث حسن ، راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٠ .

التحذير من مكايد الشيطان

لقد أظهر الشيطان عداوته للإنسان عندما أفصح عن عداوته لآدم عليه السلام ، وقد توعد البشر بالغواية والضلال ، والعاقل من يأخذ حذره من هذاالعدو ، الذي رصد عمره وسخر كيده في فساد أحوال الإنسان ، والعاقل من يستجيب لما أمره به الله من وجوب العداوة والبغضاء لهذا الشيطان .

وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال سبحانه وتعالى : ﴿**ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون**﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا** ﴾[3] وقال : ﴿ **إنما يريد الشيطانه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **إنه عدو مضل مبين** ﴾[5] وقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ **ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾[8] وفي القرآن من هذا كثير .

وكل إنسان معه شيطان يأخذ بيده إلى الهلاك ، ويراوده على المعصية ،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .
(٣) سورة النساء الآية ٦٠ .
(٤) سورة المائدة الآية ٩١ .
(٥) سورة القصص الآية ١٥ .
(٦) سورة فاطر الآية ٦ ،
(٧) سورة لقمان الآية ٣٣ ـ
(٨) سورة يس الآية ٦٠ .

والسعيد من سلم منه ، فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من عندها ليلاً ، قالت : فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : مالك يا عائشة أغرتِ ، فقلت ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يارسول الله أو معي شيطان ! قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : نعم ، قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم »[1] .

بل إن الشيطان ليجري من الإنسان مجرى الدم في عروقه ، فقد أخبرت السيدة صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبني[2] فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلكما إنها صفية ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ، أو قال : شيئاً »[3] .

والشيطان لا يفتأ يشكك الإنسان بربه وخالقه ، فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى ، فيقول : فمن خلق الله ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه »[4] وعن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه ، قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ؛ وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ؛ فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى

---

(١) انفرد به مسلم . (٣) متفق عليه .

(٢) يوصلها إلى مكانها وبيتها . (٤) حديث صحيح ، راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٧ .

فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بـالفحشاء** ﴾[1]

يقول ابن الجوزي رحمه الله في كتابه تلبيس إبليس : « فمتى سول للإنسان أمراً فينبغي أن يحذر منذ أشد الحذر وليقل له حين أمره إياه بالسوء : إنما تريد بما تـأمر به نصحي ببلوغي شهوتي ، وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه ، ثم كيف أثق بنصيحة عدو ، فانصرف فما فيَّ لقولك منفذ ، فلا يبقى إلا أنه يستعين بالنفس لأنه يحث على هواها فليستحضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس » . أ . هـ .

والشيطان لا يفتأ يشكك المؤمن بدينه ، وبما افترضه الله عليه وشرعه له .

عن سـبرة بن أبي فـاكـه رضي الله عنـه قـال : قـال رسـول الله ﷺ : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآبـاء آبائـك ؟! فعصاه فـأسلم ثم قعد لـه بطريق الهجـرة : فقال : تهاجر وتدع أرضك وسـماءك وإنما مثـل المهاجـر كمثل الفـرس في الطول! فعصـاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهـد النفس والمال ، فتقـاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهـد ، فمن فعل ذلـك كان حقـاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يـدخله الجنة ، وإن غـرق كان حقـاً على الله أن يـدخله الجنة ، وإن وقصتـه دابتـه كـان حقـاً عـلى الله أن يـدخله الجنة»[2] .

فالمسلم العاقل لا يلتفت الى وساوس الشيـطان وإنما يقـطعها بـالإيمان بـالله والتصديق بما جاء به رسوله ، والعمل بما شرعه الله على لسان رسوله وفي كتابه .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٨ .

(٢) حديث صحيح ، راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٣ .

دعوة الشيطان الطاغوتية

إن للشيطان دعوة يدعو بها ، ويحاول أن يكثّر من أتباعه ، ويكوّن منهم حزباً وجماعة يقودها إلى عذاب الله وبئس المصير ، يقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾**[1] .

وهو مع عداوته للإنسان يحاول دائماً أن يزين له فعل المعصية ، ويحضه على اقترافها ، ويريد أن يظفر به ، وأن يجعله من جنده ومن حزبه .

وفيما يلي أهم الأسس التي تقوم عليها دعوته :

(١) سورة فاطر آية ٦ .

أولاً : الكفر بالله

إن كفر إبليس بالله سبحانه وتعالى إنما كان كفر الإباء والاستكبار والاستعلاء على أوامر الله وطاعته ، وهو يحقد على الإنسان المطيع لربه ، ويحاول الإنتقام منه ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد] اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله ـ وفي رواية : يا ويلي ـ أُمِر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأُمِرت بالسجود فأبيت فلِيَ النار »[1] .

ومن هنا فهو يدعو حزبه ليكفروا بالله ويكونوا من أصحاب السعير ، فينالوا نفس مصيره ، فيحاول أن يشكك المؤمن بوجود ربه وبرسله وبدينه ولقائه ، ويحاول أن ينتقص من صفات كماله سبحانه وتعالى ، ويقيم لله انداداً يدعو إليهم ، ويزين أحوالهم ليلبس على الناس دينهم .

وقد استطاع إبليس أن يقيم لدعوة الكفر بالله في زماننا هذا صوامع وجامعات علمية ، وأن يصنع على عينه أنداداً لله قالوا : بأن هذا الكون خُلق صدفة ، وأن لا إله في الوجود والحياة مادة ، وصار هؤلاء يُصنفون ضمن أساطين العلم والمعرفة ، وأخذ فكرهم يشق طريقه بين شباب المسلمين وشيبهم ، وأخذ إبليس يفرك يديه فرحاً بهذا الانتصار الذي حققه على ابن آدم .

ولعمر الحق فإن الاعتصام بالإيمان والتفكر في ملكوت السموات والأرض ، وهذا النظام الكوني العجيب ، وهذه السنن الربانية التي تحكم هذا الوجود في الإنسان والحيوان والجماد لدليل على الخالق القادر ، قال الله تعالى : ﴿ **إن في خلق**

---

(١) أخرجه مسلم .

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى : **﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾**[2] فلو فكر عاقل في نفسه ، وفي مجرى اللقمة في جسمه لكفاه عظة وعبرة ، ولو ذهبنا نعدد مصادر العظمة والعبرة في الإنسان والكون لما وسعنا الجهد ولضاق المجال ، خاصة وأن هذا البحث غير مخصص لذلك .

ويوم أن يستحوذ الشيطان على الإنسان فإنه ينسيه ذكر ربه ، ويجعله من جنده ، قال الله تعالى : **﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾**[3] ولا يصل الشيطان إلى هذه المرحلة من السيطرة على النفس ، والاستحواذ على الفكر إلا بتمادي الإنسان في الغي ، والاستغراق في الضلال ، والانغماس في الفواحش والموبقات ، وعندها يهبط الى الدرك الأسفل ، ويبلغ من الانحطاط أدناه .

ويظل الشيطان بصاحبه حتى يصنع منه أداة شريرة ، أينما يوجهه لا يأت إلا بالشر والفساد ، والتدمير والخراب ، فعند ذلك يطمئن الشيطان إلى كفر صاحبه وزندقته فيتبرأ منه لأنه أصبح مغسول الدماغ ، مقلوب الفكر والقلب ، يخلو من كل نازع خير وداع هدى **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾**[4] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ .
(٢) سورة الذاريات آية ٢١ .
(٣) سورة المجادلة آية ١٩ .
(٤) سورة الحشر آية ١٦ .

ثانياً : البدعة في الدين

والشيطان يدعو إلى البدعة في الدين ويناصرها ، وهي نوعان :

النوع الأول :

أن يعتقد المسلم خلاف ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى ، وغير ما أمر به الرسل من الحق والهدى ، فيقول على الله مالا يعلم ، ويدعي لنفسه غير ما يستحق ، وينكر الربوبية ، ويتعدى على الالوهية ، ويصف ربه بما لا يليق ، ويتهم رسله بالكذب والتلفيق ، وكل ذلك تحت ستار العلم والفهم والواقع ، يتخذ من هذه المفاهيم دريئة لباطله ، ومظلة لمروقه وكفره .

النوع الثاني :

أن يعتقد بالله ويؤمن به ، ويصدق بما جاء به رسوله ولكنه يعبد الله بما لم يشرعه في دينه ، ولم يأذن به ، ولا دعا إليه رسله ، وذلك بأن يتخذ وسائط بينه وبين ربه من بشر أو حجر أو غير ذلك ، أو يتزيد في أنواع العبادة ، ويخلط الدين بما ليس فيه ، وقد يكون حسن النية كالرهط الذين أرادوا أن لا يتزوجوا ، وأن يصوموا دهرهم ، ويقوموا نهارهم ، وذهب بعضهم إلى رغبته في جب نفسه ليقطع شهوته ، فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين لهم أن من رغب عن سنته فليس منه ، فهؤلاء الذين يبتدعون الرسوم للعبادة ، ويأتون بأحوال غير مألوفة ، ويدعون علوماً غير معروفة ، فذلك لم ينزل به الله من سلطان ، ولم يشرعه ، على ألسنة رسله ، فتلك بدعة روجها الشيطان ودعا إليها ، وأقام لها الأدلة الكاذبة والبراهين الهابطة .

وهذه البدع بنوعيها مهلكة للمرء تأخذ به إلى النار ، ولا ينجيه منها إلا التمسك بكتاب الله والاعتصام به ، والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء بمن مضى من السلف الصالح .

والشيطان يفرح أشد الفرح إن ظفر بالمؤمن وأغواه بقبول البدعة « لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله . وصاحبها لا يتوب منها . ولا يرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم . ومعاداة صريح السنة . ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنة . وتولية من عزله الله ورسوله ، وعزل من ولاه الله ورسوله . واعتبار ما رده الله ورسوله ، ورد ما اعتبره . وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه . وإثبات ما نفاه . ونفي ما أثبته . وتكذيب الصادق . وتصديق الكاذب . ومعارضة الحق بالباطل . وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً . والإلحاد في دين الله ، وتعمية الحق على القلوب . وطلب العوج لصراط الله المستقيم . وفتح باب تبديل الدين جملة »[1] .

---

(١) ابن القيم في مدارج السالكين ج ١

ثالثاً : اقتراف الكبائر

يسخر الشيطان من أتباعه ويهزأ بهم إذا صدقوا دعواه التي تقول : بأنه لا يضر مع الإيمان شيء ، وأن الذنوب لا تضر مع التوحيد ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة ، فيستسهلون طريق الذنوب الكبيرة ويقترفونها ، ويبدأ يجرهم كالبهائم خلفه من كبيرة إلى أخرى ، فينطمس نور الإيمان في قلوبهم ، حتى يصل بهم إلى الكفر بالله ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾[1]

وللشيطان أساليب وفنون في غاية البراعة في تحسين المحرمات وتزيينها ، فيطلق على كبيرة أكل الربا والتعامل به اسم « الفائدة القانونية » فالربا الذي حرمه الله ، وجعل صاحبه في حالة حرب مع الله ، هذا الربا يطلق عليه أولياء الشيطان اسم الفائدة .

والنفس مطبوعة على حب الفائدة . فلا حرج عند أصحاب الطمع والجشع من اغتنام هذه الفرصة ولو كانت من مال حرام .

والزنا حرية جنسية ، مثلها في ذلك كالحرية السياسية ، والحرية الاجتماعية ، وفي ذلك فرصة لذوي الهوى والضلال .

والاختلاط بين الجنسين حرية شخصية ، واختبارات نفسية .

واعتناق المذاهب الهدامة ، واستيراد الأفكار المخربة من موائد الغرب والشرق العفنة « تقدمية » .

والتقاطع والتناحر والتدابر ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، والتفاخر بالآباء والأجناس والأوطان ، « كرامة وقيمة » .

وهكذا يزين الشيطان أمراض الأمة ، ويبرر انحرافاتها ، وينفث الروح في

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٩ .

الكبائر والمحرمات والأدواء ، حتى تشيع الفاحشة بين المؤمنين ، ويكثر الفسق والبلاء ، وتموت الفضيلة في مهدها ، وتشمخ الرذيلة في مزابلها .

فالشيطان يزين للناس الباطل ، ويبرره لهم في صورة مغرية ، فيندفع إليه المرء كالسيل الجارف ، يظن أنه الحق الذي لايتعدد ، وأنه الغاية المرجوة ، ولكنه يندفع لصد الناس عن الحق ، ولمحاربة أولياء الله ، فهؤلاء ﴿ **الذين ضل سعيهم في الحياةالدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[1] .

وقد روي عن وهب بن منبه رضي الله عنه : أن عابداً كان في بني إسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها . قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن أختهم قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال أنزلوها في بيت حذاء صومعتي ، قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها ، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زمانا . ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه ، وقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، قال : فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته ، قال : ثم أتاه

(١) سورة الكهف آية ١٠٤ .

إبليس بعد ذلك فقال لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها ، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها ، قال : فلبثا زماناً يتحدثان . ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها ، فلم يزل به حتى فعل ، قال فلبثا زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالى من حسن الثواب فيما يصنع بها ، وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها ، فلبثا على ذلك حيناً . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فاذا مضى النهار صعد إلى صومعته ، قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها ، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها ، فولدت له غلاماً فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها ، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاءوا فسألوه عنها : فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها ، قال : كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه ، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا إلى أهاليهم .

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة

رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ؟ فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان ، وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً ذبحه وذبحها معه فزعا منكم وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعا ، وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك ، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك ، فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم ، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجبا فأخبر بعضهم بعضا بما رأى ، فقال كبيرهم هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه ، قال : فانطلقوا جميعا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد : فصدّق قول إبليس فيما صنع بها .

فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب ، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان ، فقال له : قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها ، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه ، قال : فكفر العابد ، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه .

قال : ففيه نزلت هذه الآية **﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ـ إلى قوله جزاء الظالمين ﴾**[1] .

هكذا رماه في المعصية ، وجره إلى الكفر ، وزج به في النار ، ثم تبرأ منه .

---

(١) سورة الحشر آية ١٦ .

رابعاً : اقتراف الذنوب الصغيرة

إذا يئس الشيطان من العبد أن يقترف الذنوب الكبيرة أتاه من باب الذنوب الصغيرة ، فيحليها له ، ويدفعه إليها ، ويقول له : إنما هي لم تغفر بالطاعات وكثير العبادات ، وأنت لا تقصر في هذا الجانب فلا تحرم نفسك منها .

وعندما ينغمس العبد بالشهوة ، ويقترف الخطيئة تحلو له المتابعة وتسهل عليه المقارفة ، وتحبب إليه المعصية ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن ستكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها »[1] .

فهو إنما يرضى من المرء أن ينزلق إلى مايحقر من الأمور الصغيرة ، ثم يستدرجه إلى ما هو أعظم وأكبر في الذنب والمعصية ، فالاصرار على الصغيرة ، والاستمرار على إتيانها طريق الكفر والفسوق والفجور ، ومن هذا المبدأ قالوا : لا كبيرة مع التوبة والإنابة ، ولا صغيرة مع الاصرار والاستمرار عليها .

فليحذر المؤمن شيطانه أن يجره إلى أي ذنب ، وليعتصم بالله ويلجأ إليه ، ويستعيذ بسلطانه من الشيطان الرجيم .

ولا يزال الشيطان يهون عليه أمرها حتى يصر عليها . فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه . فالإصرار على الذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إياكم ومحقرات الذنوب ـ ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض . فأعوزهم الحطب . فجعل هذا يجيء بعود ، وهذا بعود ، حتى جمعوا حطباً كثيراً . فأوقدوا ناراً . وأنضجوا خبزتهم . فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه باسناد حسن .

خامساً : إفساد الطاعة

إذا لم يستطع الشيطان أن يقطع الإنسان عن طاعة ربه وعبادته حاول إفسادها بالوسوسة والأعراض النفسية ، وذلك حتى يحرمه الأجر والثواب الكاملين ، فقد جاء أحد الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : « إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيطان يقال له : خِنْزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عني »[1]

فهو يدعو العبد الى الانشغال بالأعراض الدنيوية ، والشئون الحياتية ، عند الطاعة ووقت المناجاة وساعات العبادة ، فما أن يقعد الإنسان للعبادة حتى يبدأ الشيطان يوسوس له بمشاغل الحياة ، ويخوفه من فوات المنافع إذا استمر في عبادته ، ويصير يخوفه الفقر والحرمان .

وهكذا لايترك سبيلا حتى يصرفه عن العبادة .

سادساً : الإكثار من المباحات

هذا الباب من المداخل الخطيرة للشيطان على الإنسان ، فهو يأخذه بالمباحات فيشغله بها ، ويسليه ويثبطه عن الاستكثار من الطاعات ، ويثنيه عن التزود لمعاده ، والاجتهاد لما بعد مماته ، ثم يستدرجه منها إلى ترك السنن ، وهجر الواجبات ، والكسل عن الطاعات ، فتخمد جذوة الإيمان في صدره ، ويرقد حس الطاعة في نفسه ، وتهمد همة العمل في جسده ، فيصل إلى حال لا تحمد عقباها ، ولايسهل معافاتها .

---

(١) رواه مسلم .

سابعاً : الدعوة إلى الأعمال المرجوحة من الطاعات

إن إبليس لا يترك العبد أبداً ، فكلما يئس من مرحلة انتقل إلى أخرى ، وكلما قنط من دعوة أتى بأخرى ، فهو هنا يأمره بالطاعات المرجوحة المفضولة بغيرها ، فيأمره بها ، ويحسنها في عينه . ويزينها له ، وأراه ما فيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسباً وربحاً ، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب ، طمع في تخسيره كماله وفضله ، ودرجاته العالية . فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه ، وبالمرضي عن الأرضى له . ولا نجاة له فيها إلا بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها في الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤسها ، وسيدها ومسودها . فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً ، ورئيساً ومرؤساً ، وذروة وما دونها ، كما في الحديث الصحيح « سيد الاستغفار : أن يقول العبد : «اللهم أنت ربي . لا إله إلا أنت ـ الحديث » وفي الحديث الآخر « الجهاد ذروة سنام الأمر » وفي الأثر الآخر « إن الأعمال تفاخرت . فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله . وكان للصدقة مزية في الفخر عليهم » ولايقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذي حق حقه .

وقد أغرى الشيطان كثيرا من الناس في زماننا بالاجتهاد والجد في بعض العبادات وكثير الذكر والدعوات ، ولكنه صدهم عن الجهاد وأقنعهم بالعدول عنه وعن أهله .

وكذلك صرف جماعة إلى الاهتمام بآداب الإسلام ، وحرضهم على التمسك بها والدعوة إليها ، وتكفير أو تفسيق من يتركها ، في حين أنهم لايلتفتون لمن يأتي الكبائر ، ولا يعتنون بأمور المسلمين وأحوالهم .

ولو ذهبنا نعدد ما نجده في مجتمعنا لضاق المجال . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثامناً : الحرب الضروس على المؤمن

إذا فشل الشيطان في دعـوته وفي مكـايده وخـطـطه سلط على المؤمن سـلاحه وجنده ، وهذا أمر مانجا منه أحد ، لا الأنبياء ولا الأصفياء ، بل إن الأنبياء والأولياء هم أشد الناس فيه جلاداً وجهاداً ، إذ يبدأ إبليس «تسليط جنده على المؤمن بأنواع الأذى ، باليد واللسان والقلب ، على حسب مرتبة المؤمن في الخـير ، فكلما علت مـرتبته أجلب عليـه العدو بخيله ورجله . وظـاهر عليـه بجنـده ، وسلط عليـه حزبه وأهله بأنواع التسليط ،وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها ، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جد العدو في إغراء السفهاء به . فهو في هذه العقبة قد لبس لامة الحرب ، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله ، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين ، وهي تسمى عبودية المراغمة ، ولاينتبه لها إلا أولو البصائر التامة . ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له . وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه .

أحدها : قوله ﴿ (٤ : ١٠٠) **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة** ﴾ سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغما يراغم به عـدو الله وعـدوه ، والله يحب من وليـه مـراغمـة عـدوه ، وإغـاظتـه . كـما قـال تعـالى : ﴿ **٩ : ١٢٠ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار . ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ وقال تعالى في مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ﴿ **٤٨ : ٢٩ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره . فاستغلظ . فاستوى على سوقه . يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

فمغايظة الكفار غاية محبوبـة للرب مطلوبـة له ، فمـوافقته فيهـا من كمال

العبودية . وشرع النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي إذاسها في صلاته سجدتين ، وقال « إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان » وفي رواية « ترغيما للشيطان » وسماها « المرغمتين » .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر . وعلى قدر محبة العبد لربه ، وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة .

ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر حيث لا يراه إلا الله ، لما في ذلك من إرغام العدو ، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لايعرفه إلا القليل من الناس ، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه في الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح . فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى »[1] أ . هـ .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم .

أوليـاء الشـــيطان

للشيطان أولياء من الإنس ومن الجن :

أولاً : من الجـن :

ودليل ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئا ، ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدنيه ، ويقول : نعم أنت » .

فالشيطان يبعث جنـده في الناس لنشـر الفساد ، وكـل منهم يعمل حسب طاقته ، وخيرهم عند إبليس من يستطيع أن يهدم بنيان الأسـرة ، ويفرق شمـل الجماعة ، ويشتت وحدة العباد ، لأن الأسرة أس المجتمع ، ودعامة الأمة ، فإذا انهدم عمودها تداعت الأركان وانكسرت .

وما من بشر إلا وله قرين من الشياطين لايفارقه قال الله تعالى : ﴿ **ومن يعش عن ذكـر الرحمن نقيض لـه شيطانـا فهو لـه قرين** ﴾[1] وقـال سبحانـه وتعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء ، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾[2] .

وروى مسلم عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة ،

(١) سورة الزخرف اية ٣٦ .

(٢) سورة فصلت آية ٢٥ .

قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »

من ذلك يتضح أن للشيطان أولياء وسرايا وجنداً من الجن يعملون بأمره ، وتحت سلطته ، ليس لهم من هم غير تخريب هذا الكون ، وإفساد الناس ، وتضليل الخلق ، والصد عن عبادة الله سبحانه وتعالى ،العبادة التي أمر بها سبحانه وارتضاها لخلقه .

ثانياً : من الإنس :

إن المعركة لا تهدأ بين الرسل وأتباعهم وبين شياطين الإنس والجن، وكما ان الذي يتمرد من الجن وينبري للغواية والإضلال نطلق عليه شيطاناً، فكذلك الانسان الذي تمرد وتمحّض للشر والغواية يكون شيطاناً.

وشياطين الجن غيب لا نعرفه ولا ندركه إلا من خلال النصوص التي وردتنا في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، وقد قدمنا طرفاً منها في ثنايا الموضوع، ونحن نؤمن بوجودهم وأحوالهم من خلال تلك النصوص وقد نشعر ببعض تأثيراتهم داخل الصدور والنفوس كالوسوسة وخواطر السوء ونزعات الشرّ.

أما شياطين الإنس فقد خبرنا حالهم، وقرأنا عنهم، وعرفنا مدى عداوتهم للأنبياء والمرسلين والدعاة المخلصين على مدى الأزمان وكر العصور، فما من نبي إلا وابتلاه الله بثله من هؤلاء الشياطين، الذين يحاولون حجب الهداية عن البشر، ويحبون نشر الضلالة والجهالة والغواية بين الخلق .

والتعاون والتنسيق والمناصرة قائمة أواصرها بين شياطين الجن وشياطين الإنس، يقول الله سبحانه وتعالى : **﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما**

فعلوه، فذرهم وما يفترون، ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ [1] .

فكل من وقف لدعوة الحق الربانية فهو شيطان، وهو مفتري وكذاب وهو ممن لا يؤمن بالآخرة، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل،مغرورين بسلطانهم الخادع، وكيدهم الضعيف، ثم يكسبون كل الإثم والشر والمعصية والفساد .

« إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الإنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة . . هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه . . خطة مقررة فيها وسائلها . . « **يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** » . . يمد بعضهم بعضا بوسائل الخداع والغواية؛ وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضا ! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً . ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد ليس طليقاً . . إنه محاط به بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد ـ على ضخامته وتجمع قوى البشر العالمية كلها عليه ـ مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع ـ كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر؛ ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم . . كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله . وقدرتهم محدودة بقدر الله . وما يضرون أولياء الله إلا بما اراده الله ـ في حدود الابتلاء ـ ومرد الأمر كله الى الله .

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٢ ـ ١١٣ .

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها . ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين ، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود، وأن ينطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين ! وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم . أما عداوة الشياطين، وكيد الشياطين، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ »[1] .

﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون** ﴾[1] . .

إن هؤلاء الذين يرضون بالتبعية للشيطان، والذين يريدون العزة والكرامة في ظل خبث ونجس الشيطان، ومبادىء الشيطان، هؤلاء خسروا أنفسهم، لأنهم اتخذوا عدوهم ولياً، وصاروا في حاشية عدوهم وهم لا يشعرون ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلاً** ﴾[2] فقد ارتكسوا وخابوا وخسروا خسارة عظيمة ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾[3] .

فالشيطان يهلك هؤلاء الأولياء له، ويوردهم موارد الموت والتهلكة ثم يتخلى عن هؤلاء لحظات الشدة والحاجة، كما فعل بالمشركين يوم بدر : ﴿ **وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم** ﴾[4] فلما رأى الملائكة تأخذ بالرقاب والجماجم

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب .
(٢) سورة الكهف آية ٥٠ .
(٣) سورة النساء آية ١١٩ .
(٤) سورة الأنفال آية ٤٨ .

ولى هارباً، وتبرأ من وعده لهم، وهذا في الدنيا، وكذلك في الآخرة يتبرأ من أتباعه فيقول لهم : ﴿ **إني كفرت بمـا اشتركتمـون من قبل** ﴾[1] فيـزيدهم تبكيتـاً وحسرة وندامة، ويوردهم النار وبئس المآل والقرار .

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢ .

الفصـــل السادس

الطاغـوت الثـالث

الأحبار والرهبـان

الأحبار :

جمع حَبر أو حِبر بفتح الحاء أو كسرها، وهو العالم من أهـل الكتاب، وكـثر إطلاقه على علماء اليهود .

الرهبـان :

جمع راهب، وهو مشهور عند النصارى وهو المتبتل المنقطع للعبادة، لا يتزوج، ولا يزاول الكسب، ولا يتكلف للعيش .

قال الله تعالى : ﴿ **اتخـذوا أحبارهم ورهبـانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مـريم . ومـا أمـروا إلا ليعبـدوا إلهاً واحـداً . لا إلـه إلا هـو سبحـانـه عـما يشركون** ﴾[1] .

لماذا كان الرهبان والأحبار من الطواغيت :

لقد كان هؤلاء الأحبار والرهبـان ينازعـون الله في شريعته فيحلون لقـومهم الحرام فيتبعهم قومهم على ذلك فيحلوا ذلك الحرام، ويحرمون على قومهم الحـلال

(١) سورة التوبة آية ٣١ .

فيحرمونه هم كذلك، فنازعوا الله في شرعه وأحكامه فكانوا طواغيتاً لهذا .

روى القرطبي في تفسيره عن الأعمش وسفيان ـ عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري قال : سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ هل عبدوهم ؟ فقال : لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه، وحرّموا عليهم الحلال فحرّموه .

« وفي الآية استمرار في وجهة السياق في هذا المقطع من السورة. من إزالة الشبهة في أن هؤلاء أهل كتاب، فهي تقرر أنهم لم يعودوا على دين الله، بشهادة واقعهم ـ بعد شهادة اعتقادهم ـ وانهم أمروا بأن يعبدوا الله وحده، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ـ كما اتخذوا المسيح ابن مريم رباً ـ وان هذا منهم شرك بالله . . تعالى الله عن شركهم . . فهم إذن ليسوا مؤمنين بالله اعتقادا وتصوراً ؛ كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعاً وعملا .

قال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً** ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتّبع ، وما حكم به نفذ .

وقال الألوسي في التفسير : « الأكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم » . .

ومن النص القرآني الواضح الدلالة ؛ ومن تفسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فصل الخطاب ـ ثم من مفهومات المفسرين الاوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير اليها هنا بغاية الاختصار .

إن من العبادة لله تعالى الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ فاليهود والنصارى ـ لم يتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية لهم . . ومع هذا فقد حكم الله ـ سبحانه ـ عليهم بالشرك في هذه الآية وبالكفر في آية تالية في السياق ـ لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها . . فهذا وحده ـ دون الاعتقاد والشعائر ـ يكفي لاعتبار من يفعله مشركاً بالله الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين .

إن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم واتبعوهم، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا اليه الشعائر في العبادة . فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركاً بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين . .

ان الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ؛ فيما لم يأذن به الله ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته[1] ؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له . . كما هو واضح من الفقرة السابقة . . ولكنا إنما نزيدها هنا بياناً . وهذه الحقائق ـ وان كان المقصود الأول بها السياق هو مواجهة الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب ـ هي كذلك حقائق مطلقة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة . .

❋(١) بل اعتقدوا أن أحبارهم ورهبانهم لهم الحق في التشريع وإصدار الأحكام ولو خالفت نصوص كتاب الله ؛ وهذا منهم تربيب ضمني لهم وتأليه ضمني لهم ولو كان الأمر مجردّ طاعة في أحكام مخالفة لأحكام الله مع اعتقاد أنهم عصاة لأحكام الله لما كان ذلك من اتخاذهم أرباباً وآلهة من دون الله .

إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم ديناً غيره هو « الإسلام » . . والإسلام لا يقول إلا باتباع الله وحده في الشريعة ـ بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده ـ فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صح فيهم ما صح في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله ـ مهما كانت دعواهم في الإيمان ـ لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله ، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم ، لا طاقة لهم بدفعه ، وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله . .

إن مصطلح « الدين » قد انحسر في نفوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه عقيدة في الضمير، وشعائر تعبدية تقام ! وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم ـ ويقرر تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله، وأنهم أشركوا به، وأنهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً، وأنهم اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله.

إن المعنى الأول هو الدينونة ـ أي الخضوع والاستسلام والاتباع ـ وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في تقديم الشعائر. والأمر جد لا يقبل هذا التميع في اعتبار من يتبعون شرائع غير الله ـ دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان الله ـ مؤمنين بالله، لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر. . هذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ؛ وهو أفتك الأسلحة التي يحاربه بها أعداؤه؛ الذين يحرصون على تثبيت لافتة « الإسلام » على أوضاع ، وعلى أشخاص، يقرر الله سبحانه في أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق، وأنهم يتخذون أرباباً من دون الله. . واذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الاوضاع وهؤلاء الأشخاص؛ فواجب حماة هذا الدين ان ينزعوا هذه اللافتات الخادعة؛ وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون

الله . . ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[1].

قال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه ، فقالوا : لن نسبق أحبارنا بشيء ، فما أمرونا به ائتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم ، فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لا أنهم صلوا لهم ، وصاموا لهم ، ودعوهم من دون الله ، فهذه عبادة للرجال .

ويقول ابن تيمية رحمه الله في كتابه « الإيمان » :

« وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله ، يكونون على وجهين :

أحدهما : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل ، فيعتقدوا تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم ، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء .

والثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الطاعة في المعروف » . وقال : « على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، ما لم يؤمر

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب .

بمعصية » . وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وقال : « من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه » .

وفي « الدر المنثور » . . روى الترمذي (وحسنه) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وغيرهم عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ في سورة براءة : ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه . وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

وفي تفسير ابن كثير : روي الإمام أحمد والترمذي وابن جرير - من طرق - عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله عليه السلام على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدم عدي المدينة - وكان رئيساً في قومه طيىء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي عنق عدي صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم : فذلك عبادتهم إياهم . . . » .

« ففي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقوله تعالى في آخر الآية : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ ونظير

ذلك قوله تعالى : ﴿ ٦ : ١٢١ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم ، لعدم إعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره ، أو يحرم ، فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة . ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد ، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل ؛ ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل :

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه . ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين »[1] .

فالأحبار والرهبان تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وكانوا كالحمار يحمل أسفاراً لا يعرف مافيها ، ثم أخذوا يشرعون للناس ما توحي به شهواتهم وأطماعهم ، وقد وصل بهم الحال أن يبيعوا الجنة بصكوك الغفران لمن يدفع أكثر ، فكانت الكنيسة النصرانية في أوروبا حائلاً دون العلم والمعرفة ، ولها أكبر الإقطاعات من الأراضي ، وكانت تستغل الشعب أسوأ استغلال ، وكل ذلك بسبب هذه التشريعات التي يسنوها للأمة من عند أنفسهم والشيطان ، وبهذا استحقوا أن يطلق عليهم لفظ الطاغوتية ، وأن تجري عليهم أحكامه .

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد . ص ٤٠٠ .

علماء الإسلام ليسوا أرباباً

قد يشط الرأي بصاحب بدعة أو تفكير سقيم فيفهم من كلامنا غير ما نريد ، وينسب إلينا من بنات خياله ما لسنا نريده ، فلذا وضعنا هذا الفصل .

إن علماء الإسلام ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وقد أخذ الله عليهم ميثاق تبيين الحق للناس ، وجعلهم أئمة يُهتدى بهم ، وتقتفى آثارهم ، وثلث بهم بالشهادة على وحدانيته سبحانه وتعالى فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولي العلم قائماً بالقسط** ﴾[1] .

وقد حرص علماء الأمة أن يقتفوا أثر النبي صلى الله عليه وسلم في الأحوال كلها ، وأن يستبطوا من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام الأحكام والفتاوي ، وقد فتحوا باب الاجتهاد في الحق على مصراعيه ، لأنه الباب الذي يجدد للأمة حياتها بعلمائها .

وقد نبغ كثير من هؤلاء العلماء ، وقدموا للإسلام أعظم الخدمات ، وكتبوا في العقيدة والشريعة أحسن الكتب وأقومها وأكثرها فائدة ، فكانوا ورثة الأنبياء يُهتدى بهم في الدين والدنيا .

والاجتهاد في الشريعة الإسلامية لا ينطبق على ما عُلم من الدين بالضرورة ، كوجوب الصلاة ، والزكاة وصوم رمضان ، والحج على المستطيع ، وكحرمة الربا والزنى ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، والأحكام التي هي أساس

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨ .

الدين سواء ما يتصل منها بالعقيدة ، أو الأمور العلمية ، فإنها قد وردت في آيات محكمة لا تحتمل التأويل ، ولا تثير الخلاف ، لأن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون هذه الأمور ثابتة على مر العصور كأكثر أحكام المواريث ، وأصول أحكام الأحوال الشخصية ، وآيات الحدود والقصاص .

أما المسائل القابلة للتطور ، فقد جاء القرآن الكريم في شأنها موضحاً الخطوط الرئيسة ، وكانت محلاً لاختلاف الأنظار ، دون أن تكون سبباً للمنازعة والشقاق .

والاجتهاد لابد أن يكون قد أعتمد على نص شرعي من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحتى إن الآراء المعتمدة على الإجماع والقياس وغيرها من الأدلة المساندة لابد أن ترجع إلى كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا المنطلق فإن نظرة القداسة والربوبية منتفية عن علماء هذه الأمة ، لأن القداسة إنما توجه إلى مصادر الاجتهاد وهي الكتاب والسنة ، لا إلى المجتهد نفسه ، ولذا فإن المسلمين يرفضون كل رأي لا تشهد له الشريعة كائناً من كان قائله .

ولذلك فإننا لم نجد أحداً من المشتغلين بالفقه ، وعُرف بالاجتهاد اعتمد في استنباط حكم شرعي على غير الأدلة الشرعية .

إن علماء الإسلام خيار هذه الأمة ـ عكس الأمم السابقة التي كان علماؤها شرارها ـ « لأنهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة ـ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً ـ يتعمد مخالفة رسول الله صلى

الله عليه وسلم بشيء من سنته ، دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن إذا وجد لواحدٍ منهم قول ، قد جاء حديث صحيح بخلافه ، فلابد له من عذر في تركه .

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدهما : عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله .

والثاني : عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول .

والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ »[١] .

فهناك انعقاد رأي عند الأمة أن العلماء في اجتهاداتهم وفتاويهم لا يتعمدون مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا لأحد منهم أن يخرج عن النص ، وأنهم متفقون على أن من بدا منه الخروج عن النص فإنه داخل ضمن الأعذار الثلاثة التي ذكرناها آنفاً ، وأنه مجتهد مأجور من الله على اجتهاده ، إن أخطأ فله أجر واحد ولا وزر عليه ، وإن اجتهد فأصاب فله أجران .

وقد يجتهد العالم فيحرم حلالاً ، أو يحلل حراماً ـ وقلما يحدث هذا ـ لكنه لا يندرج تحت مظلة الربوبية التي وردت في الآية ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ .

« فالمحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر ، وقد اتقى الله ما استطاع ، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه ، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه »[٢] لأن مدار الأمر على

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية .

(٢) كتاب الإيمان لابن تيمية .

الاجتهاد مع النية الصادقة بأنه إنما فعل ذلك بمقتضى الشرع والدين ، لا يدعو إلى دين جديد ، ولا أثر للهوى في نفسه ، إنما اجتهد مرضاة لله ، وخدمة لدينه .

أما الأثم والمعصية إنما تكون في هذه الحالة على من علم أن الحق في المسائل التي اجتهد فيها العالم غير ما قال ، وعرف أنه خالف نصاً من الكتاب أو السنة ، ثم أصر على اتباعه ، وهو يعلم أن قوله باطل ، «وعلم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ، ثم اتبعه على خطئه ، وعدل عن قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله ، لاسيما أن اتبع في ذلك هواه ، ونصره باللسان واليد ، مع علمه بأنه مخالف للرسول ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه .

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه ، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق ، لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾[3]

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل ، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ ، كما في القبلة .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٩ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

(٣) سورة المائدة آية ٨٦ .

وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيباً ، لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً ، كان آثماً ، كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ ، فليتبوأ مقعده من النار ، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال حباً منعه من عبادة الله وطاعته ، صار عبداً له . وكذلك هؤلاء ، فيكون فيه شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفي الحديث : « إن يسير الرياء شرك » . وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب »[1] .

---

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٦٨ ـ ٦٩ .

الفصـل السـابـع

الطاغوت الرابع

الساحر

سمي السحر بهذا الإسم لأنه مما خفي ولطف واعتمد الحيلة والخدعة .

والسحر ضربان :

الأول : تخييل لا حقيقة له وهو يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ، بحيث يفعل الساحر أشياء يخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء . قال تعالى : ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾[1] .

الثاني : حقيقة وبه يصل إلى إيقاع الضرر بالآخرين فيفرق بين المرء وزوجه ، ويؤذي به الناس .

وقد يعتمد السحر على العزائم والرقى والنفث في العقد فتؤثر في القلوب والأبدان ، فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه ، قال تعالى : ﴿ **فيتعلمون منهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾[2] . **وقد علمنا أن الاستعاذة به من شر النفاثات في العقد فقال** : ﴿ **ومن شر النفاثات في العقد** ﴾[3] . **فدل على أنه حقيقة توجب الاستعاذة منها بالله ، لأن النفث في العقد من جملة أعمال السحر .**

---

(١) سورة طه آية ٦٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٣) سورة العلق آية ٤ .

ولا يقتصر شر السحر على عامة الناس بل قد يصيب الأولياء والأصفياء والأنبياء ، ولكن تأثيره على الأنبياء لا يصل إلى العقل والقلب ، وإنما هو عرض كالأعراض الظاهرة الأخرى يؤثر على ظاهر الجسم مثل أي مرض آخر يتعرضون له .

روى البخاري ومسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

«سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق ، يقال له لبيد ابن الاعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى إذا كان ذات يوم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا ثم دعا ثم قال : « يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟(أي أجابني لما دعوته به) جاءني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي ، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي : ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب (أي مسحور)

قال : من طبه ؟

قال : لبيد بن الأعصم ،

قال : في أي شيء ؟

قال : في مشط ومشاطه - أي شعر سقط عند التسريح - وجف طلعةِ ذكر (أي غشاء الطلع) ،

قال : فأين هو : قال : في بئر ذي أروان .

قالت : فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه .

ثم قال : « يا عائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .

فقلت يا رسول الله : أفلا أحرقته ؟

قال : لا أما أنا فقد عافاني الله ، وكرهت أن أثير علي الناس شراً فأمرت بها فدفنت » .

وقد كان الظن : أن انتشار العلم وتوسيع أفق المعرفة يحيل بين الناس وبين اتباعهم السحر ، ولكننا فوجئنا أن الناس في إقبال عليه ، وأكثر ما يكون ذلك في البلاد الفقيرة وحيث ينتشر الجهل بالدين ، وأكثر ما يكون انتشاراً في بلاد الغرب حيث أقاموا له الرايات ، وصار له تلاميذ وأتباع .

ولقد قاوم الإسلام السحر ودعا إلى هدمه والقضاء عليه ، كما وصف عمل الساحر بأبشع الأوصاف ، وشنع على السحرة فعلهم ونعتهم بالفسق والشرك والكفر .

والساحر طاغوت بفعله السحر لتجاوزه الحق وطغيانه فيما يعمل من سحر ليطمس الحق ويقضي عليه، ويصور الباطل في صورة حسنة يقبل عليها الناس .

وقد حاول السحرة الذين جاء بهم فرعون مصر أن يصرفوا الناس عن الحق ، وأن يصدوهم عن موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤيدوا فرعون بسحرهم وخدعهم ، فجلعوا حبالهم وعصيهم يخيل لمن ينظر إليها بأنها حيات تسعى ، ولكن معجزة الله لموسى عليه السلام أبطلت ذلك وقضت على سحرهم وكيدهم ، وعلم السحرة أن ما جاء به موسى لم يكن سحراً ، وإنما هو معجزة من الله سبحانه وتعالى ، فأعلنوا إيمانهم بموسى ، وبما جاء به ، وخضعوا بعبادتهم لله وحده ، وآثروه على الحياة الدنيا ، وتحدوا فرعون في تهديده ، ولم يتراجعوا عن إيمانهم .

قال الله تعالى : **﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقُوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب**

هارون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أيُنا أشد عذابا وأبقى * قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقضِ ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ .

فالسحر غالباً ما يكون نصيراً للباطل والضلال ، وقد يُبنى على الرقى الباطلة ، والكلام الذي يحتوي الكفر والشرك ، وقد يكون من عهود الشياطين ومن وساوسهم الخبيثة .

تكفير الساحر

وصف الله السحرة ومن يتعلم السحر بالكفر في كتابه الكريم فقال :

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾[1] [2] .

وهذه الآية الكريمة نستنتج منها الأحكام التالية :

أولاً : نعت الله الذين يتعلمون السحر بأنهم من الذين ينبذون كتاب الله سبحانه وتعالى وراء ظهورهم ، ويكذبون رسوله عليه السلام ، فقال : **﴿ ولما جاء رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾**[3] **﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾**[4]

قال السدي : « نبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت »[5] فيكفي وصفاً لمن تعلم السحر أنه نبذ كتاب الله وراء ظهره ، وتركه

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

*(٢) فرق بين ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وبين ما أنزل على الملكين ببابل الذي منه تعلم ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

(٣) سورة البقرة آية ١٠١ .

(٤) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٥) تفسير القرطبي ج٢ص ٤١ .

هجراً له ، وتكذيباً للنبي الذي جاء به .

ثانياً : إن المتعلم للسحر إنما يتعلم ما يضره[1] ولا ينفعه لقوله تعالى : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** » وهذا الضرر واقع بهم في الدنيا والآخرة ولذلك قال سبحانه : ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ .

ثالثاً : أن ما يقومون به من فعل السحر ، وإيذاء الآخرين ، والتفريق بين المرء وزوجه هو من عمل الشياطين ، قال الله تعالى : ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ لأن الشيطان تأخذه نشوة الفرح والسرور إذا تمكن من تفريق الزوجين وهدم الأسرة .

فالساحر والشيطان يتعاونان في هذه السبيل حتى يفرقا بين المرء وزوجه ، وهما في ذلك لايملكان حولاً ولا طولاً إلا أن يشاء الله ، فإذا قضى الله أن يقع الضرر عند هذا الأمر كان ووقع ، أما اذا لم يقدر الله ذلك فلن يقع ، لقوله تعالى : ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ .

ومن سنن الله في الكون أن يحصل الإحراق بالنار ، وأن يكون الذبح بالسكين ، **وأن يقع الضرر أحياناً بالسحر ، وهكذا كل أمر له سنة يجري** عليها ، والله سبحانه وتعالى قادر على تعطيل هذه المسببات متى شاء ، فقد منع الحرق بالنار عندما رُميَّ ابراهيم عليه السلام فيها ، كما أذهب خاصية القطع بالسكين عندما أراد ابراهيم عليه السلام ذبح إبنه اسماعيل عليه السلام ، وهكذا إذا شاء الله أن يوقع الضرر بواسطة السحر وبسببه كان ذلك ، واذا لم يرد لم يكن

❋(١) كان هؤلاء الذين قد تعلموا السحر هكذا وليس كلّ مسائل السحر هكذا فالحصر لا يصح بهذه الصورة .

إلا ما أراده سبحانه وتعالى .

رابعاً : جاءت الآية صريحة في كفر الساحر ، وأن المتعلم له كافر ، فقال جلا جلاله : ﴿ **وما كفر سليمان** ﴾ وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه : ما من أحد نسب سليمان عليه السلام إلى الكفر مباشرة ، وإنما نُسب الى السحر لأنه بمثابة الكفر فبرأه الله منه ، « ولم يتقدم في الآية أن أحداً نسبه الى الكفر ، ولكن اليهود نسبته إلى السحر ، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر »[1] وقد أثبت الله كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر فقال : ﴿ **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** ﴾ . فقد دلت الآية على كفر الساحر .

وإلى القول بكفره ذهب كثير من فقهاء المسلمين ، منهم الإمام مالك رحمه الله قال : إن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته ، لأنه أمر يستتر به كالزنديق والزاني ، ولأن الله سمى السحر كفراً بقوله : ﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾[2] وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة .

وقد رُوي قتل الساحل عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين[3] .

وإذا صح ما ذكره ابن تيمية رحمه الله عن أعمال بعض هؤلاء السحرة فإن وصمهم بالكفر هو أصح الأقوال ، قال رحمه الله : «إن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة ، وقد يقلبون حروف كلام الله عز وجل ، إمّا حروف الفاتحة ، وإمّا حروف قل هو الله أحد ، وإمّا غيرهما» .

(١) تفسير القرطبي ، جـ ٢ ص ٤٣

✱(٢) هذه الآية تدلّ على أن منه ما لا يسبب الكفر.

(٣) لم يذكر القرطبي رحمه الله اسماء السبعة من التابعين الذين قالوا بكفر الساحر .

ويـذكـر رحمـه الله : « أنهم قـد يكتبـون كـلام الله بـالـدم أو بغـيره من النجاسات ، وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان ، أو يتكلمون بذلك »[1] .

ولـذا أمرنـا النبي صلى الله عليـه وسلم باجتنـاب السحـر لأنـه من الكبائر المهلكات ، روي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ! ومـا هنّ ؟ قال . الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكـل مال اليتيم ، والتـولي يوم الـزحف ، وقذف المحصنـات الغافـلات المؤمنات » .

وقد روى الترمذي عن جندب مـرفوعـاً : « حدُ السـاحر ضربـه بالسيف » وقال الترمذي : الصحيح أنه موقوف .

وبهذا الحديث أخذ مالك وأبو حنيفة وأحمد قالوا : يقتل الساحـر وروى قتل السـاحر عن عمـر ، وعثـمان ، وابن عمـر ، وحفصـه ، وجنـدب بن عبـدالله ، وجنـدب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمـر بن عبدالعـزيـز ، ولم يـر الشـافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا أن عمل في سحره مـا يبلغ الكفر ، وعـلى هذا عمـل الناس في خلافة عمر رضي الله عنه .

وقـد صح عن بجـالة بن عبـدة قال : كتب عمـر بن الخطاب : « أن أقتلوا كل ساحر وساحرة » قال : « فقتلنا ثلاث سواحر » .

وقـد نص ابن القيم رحمه الله : « عـلى أن الساحـر مشرك ، لأن السحر لا يتأتى بدون الإشراك بالله »[2].

---

(١) الفتاوي لابن تيمية ١٩ ص ٣٥ .

* (٢) كلام ابن القيم اجتهاد منه وهل تعلّم السحر وعرف أنه لا يكون إلّا بالشرك بالله .

وبقـدر مـا يتقـرب السـاحـر إلى الشيـطان بـالـطاعــات ، ويبعـد عن الله بالمعاصي ، بقدر ما تساعده الشياطين على إضرار العباد ، وايذاء الخلق ، وقد نزع الله من قلوب السحرة ووجوههم الرحمة والعطف ، ونزع من نفـوسهم كل خـير ، فتراهم يهيمون في كل فساد ، ويفرحون لكل ضرر يوقعونه بالناس .

ومن أعتصم بالله كفاه شر السحر ورد كيد السحرة عنه .

وقد حرم الإسلام على المسلمين الذهاب إلى السحرة لحل مشاكلهم أو شفاء مرضاهم ، أو بقصد الإضرار بالآخرين ، وقد تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من أمثال هؤلاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من تطير أو تُطُيِّر له ، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له ، أو سحر أو سُحِر له »[1] ويقول ابن مسعود رضي الله عنه : « من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم »[2] . وروى ابن حبان في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا مؤمن بسحر ، ولا قاطع رحم » .

فليرتدع من يؤمن بالله وبرسوله واليوم الآخر عن إتيان السحرة ، وليتب من أتاهم ، أو دعا إليهم ، أو دل عليهم ، أو عرّف بهم .

وعلى كل مسلم أن يبـذل النصيحة للمسلمـين ليبتعدوا عن هؤلاء السحـرة والمشعوذين الخارجين عن دين الله .

---

(١) رواه البزار بإسناد جيد .

(٢) رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد .

الفصل الثامن

الطاغوت الخامس
الكاهن

ولا يختلف الكاهن عن الساحر إلا في كون الكاهن يدعي كذباً أنه يعلم الغيب ، ويعرف المستقبل ويخبر به ، ولذا فإن الجهلة من الناس ، وضعاف الإيمان من المسلمين يذهبون إلى هؤلاء يسألونهم عن أمور حدثت لهم من سرقات وجنايات ، أو يسألونهم عن أمور المستقبل ، وما سيحصل لهم في مستقبل الأيام .

يقول ابن القيم رحمه الله :

« الكهنة رسل الشيطان ، لأن المشركين يهرعون اليهم ، ويفزعون إليهم في أمورهم العظام ، ويصدقونهم ، ويتحاكمون اليهم ، ويرضون بحكمهم ، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل ، فإنَّهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ، ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم ، فهم عند المشركين بمنزلة الرسل ، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة ، أرسلهم الى حزبه من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين ، حتى استجاب لهم حزبهم ، ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ، ولما كان بين النوعين التضاد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة ، وأتباع الرسل ، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء ، بل يبعد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقدر قربه من الكاهن ، ويكذبّ الرسول بقدر تصديقه للكاهن »[١] .

فهؤلاء الكهان طواغيت تنزل عليهم الشياطين تخبرهم ببعض الأخبار ، أو

---

(١) ابن القيم في اغاثة اللهفان .

يعتمدون على الفراسة والخبرة فيقولون كلاماً عاماً ، يظن صاحب الحاجـة ، لفرط تعلقه بحاجته ، ولضعف إيمانه ، أن الكاهن قد أصاب فيما قال فيصدقه فيكفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه : «الـطواغيت كهان ، كـان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد » .

لقد كان الكهنة فيما مضى مـرجع النـاس في خلافـاتهم ، وجميع أحـوالهم ، وكـانت لهم سطوة كبـيرة في النـاس ، ، وقـد هـدم الاسـلام مكـانتهم ، وقـوض سلطانهم ، ، وأزاحهم من طـريق الحيـاة ، ولكن نجمهم بـدأ في الصعـود حـين ضعف الإيمان في النفوس ، وانحسر الـدين عن الحياة ، وابتعـد الخلق عن الله ، فـظهر هؤلاء الكهـان « العرافـون » في كثير من الأقـطار والأمصار ، وصـار الناس يـرجعون اليهم في مسـائلهم وأمورهم الهـامـة ، فتنـابـذ النـاس واختلفـوا نتيجـة تصديقهم كذب الكهان الذين كانوا يتهمـون فريقـاً بسرقة الفـريق الآخر ، أو أن أولئك يكرهون هؤلاء ، أو غير ذلك .

وقد صار لهؤلاء الكهان في عصرنا الحاضر مؤسسات تحميهـا الدولـة وتسهر على مصلحتها ، وصار لهم رئيس يُنَصِّب من يريد ، ويفصل عنهم من يريد .

فقد قرأت في الصحف إعلاناً كبيـراً لأحدهم ويتخـذ من باريس مقـراً له ، يذكر فيه أن ممثليه في العـالم هم من نشر صورهم وعنـاوينهم وأسماءهم فقط ، أمـا غـيرهم فلا صلة لهم بمؤسسته ، وكان من جـرأته أنـه يقول : إننـا لا نـطلب من الزبون شيئاً قبل أن يتحقق بصدق ما أنبأناه .

والأدهى من ذلك أن الصحف العالمية تنشر كل عـام أخبار هؤلاء ، وتـذكر تنبؤاتهم حول مصير العالم ، وقد أختص بعضهم بالأخبار عن الزعماء والمشاهير من الممثلين والكتاب .

وأصبح هؤلاء أعلاماً يتوافد الناس اليهم في أوروبا وفي أمريكا ، وصار كثير من النـاس يتجمعون عليهم ، ومـرجع ذلـك الى ضياع الـدين عنـد الغـربيـين ، وضعفـه عند المسلمـين ، ونتيجة الخـواء الروحي ، والفـراغ النفسي صار النـاس يظنون أن حلاً ما عند هؤلاء .

إن الإسـلام قد رفض الأوهـام ، وحارب الـدجالـين الـذين يـدعـون علم الغيب من الكهان والعرافين .

فالغيب من اختصاص الله سبحانه وتعـالى وحده ، لا يشركـه فيه أحـد من نبي مرسل ، ولا ولي مقرب ، ولا ملاك مصـطفى ، قال الله في كتـابه الكـريم : ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾[1] فقد نفى سبحانه أن يعلم الغيب سواه ، وهذا نبي الله محمد عليه الصلاة والسلام يعلن بأمر ربـه في القرآن : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾[2] فهو لا يعلم الغيب وهو من هو منزلة وقربى من الله سبحانه ، وحتى الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب ، فقد أخبر الله عن قصتهم مع سليمان عليه السلام ، وحكى لنا استمرارهم في التكاليف الشاقة التي كلفهم إياها سليمان عليه السلام رغم موته ، لأنهم ما كانوا يعلمون انه قد مات فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾[3] .

ولذلك نفى النبي عن نفسه علم الغيب ، ورد على من أرادوا منه أن يعرف ما يخبئونه في أيديهم فقال : « إني لست بكاهن ، وإن الكـاهن والكهانـة والكهان في النار » .

---

(١) سور النمل آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨

(٣) سورة سبأ آية ١٤

ومن طريف ما قرأناه من قصص هؤلاء الكهان : « أن كاهناً يهودياً جاء الى هارون الرشيد رحمه الله وأخبره بأنه لن يعيش أكثر من سنة ، فوقع شيء من الهم في نفس هارون ، فكان ان قيض الله له أحد جلسائه فقال له : ما بك يا أمير المؤمنين مهموماً ؟؟ قال : إن هذا أخبرني أن عمري لن يطول أكثر من سنة فقال له : سله يا أمير المؤمنين كم يعيش هو ؟ فسأله الخليفة ، فرد بأنه سيعيش طويلاً ، فأشار الرجل على الخليفة أن يقتله ليدل على كذبه وخداعه ، فأمر به فقتل بالحال وعاش الخليفة دهراً طويلاً ، وقد رد الله كيده في نحره »[1] .

وقد طلع علينا كهان العصر الحديث بأكاذيب كثيرة منها : طالع المرء ومستقبله وما يحصل له بالاعتماد على الكواكب وابراجها ، وهذا من التلفيق والتكذيب ، فإن ما يخبرون به بأنه حاصل لمواليد هذا البرج فإنه لا يحصل منه شيء ، وقد يقول عن مولود برج أنه سيكون سعيداً في حياته ، وتراه أتعس الناس وأشقاهم في حياته .

فكل من صدق شيئاً من كهانة هؤلاء واضرابهم فقد صدَّق أن بعض الخلق يكشفون أستار القدر ، ويعلمون ما يكنه صدر الغيب من أسرار ، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ورد الحق الذي لا مراء فيه وكذب صريح القرآن القائل : ﴿ **قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحي إلي** ﴾[2] ويقول : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾[3] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير

(٢) سورة الأنعام آية ٥٠

(٣) سورة لقمان آية ٣٤

ففي الإشارة عبرة ، وفي هذا عظة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، فلا كهانة ولا كهان في الإسلام ، ولا إيمان ولا تصديق لما يقوله هؤلاء ولهم علينا أن نحاربهم وننفر منهم وننكر عليهم ونأخذهم بالذل والمهانة في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب مهين .

إن هؤلاء يدعون إلى الضلال والكفر ، فعلى من في أيديهم السلطة أن يأخذوا على أيدي هؤلاء الأدعياء الذين يدعون علم الغيب من الكهان وقراء الكف والفنجان وضاربي الرمل وأمثالهم ، وأن يمنعوهم من ذلك كله ، لمنع خطرهم ورد كفرهم وشركهم عن الأمة .

وعلى أصحاب الصحف المستقيمة ، وأرباب الأقلام الصادقة أن يسخروا ما وهبهم الله إياه لحرب هؤلاء ، والحملة عليهم ، وتوضيح شرورهم ، ودحض كذبهم وأباطيلهم .

فلا تحضير الأرواح ولا الكهانة ولا السحر إلا أكاذيب وافتراءات تهدف الى نشر البلبلة والضلال في الأمة ، فواجب على الأمة أن تأخذ على يدهم ، وأن يستأصلوا شأفة شرهم .

الفهـــرس